حددت الوثيقة المطالب التي كان على الأمير حسين ان يتقدم بها إلى بريطانيا. ولم يكن هناك ما يخسره الحسين من تقديم هذه المطالب، لأن طرحها يساعده في الحصول على تأييد الجمعيات السرية ـ مهما كانت قيمة هذا التأييد ـ عندما يعلن ثورته، كما ان طرحها سيعزز مطالبته بالزعامة في سياسة شبه الجزيرة العربية والسياسة العربية العامة، ويساعده أيضاً في تبرير تأييده المسيحيين ضد تركيا المسلمة. وهكذا فإنه أرسل في صيف عام ١٩١٥ رسالته المتضمنة مطالب بروتوكول دمشق إلى مقر المعتمد البريطاني في القاهرة، حيث لم تحمل هذه المطالب ـ كما رأينا ـ على محمل الجد.

(٣)

كان الملازم محمد شريف الفاروقي، وهو ضابط ركن عربي في الجيش العثماني من الموصل في الرابعة والعشرين من عمره، عضواً في جمعية سرية، وكان عمله في دمشق عندما توقف فيها فيصل المرة الأولى في أوائل عام ١٩١٥. وربما كان أحد الذين التقوا فيصل هناك في ذلك الحين. أما إذا لم يكن التقاه فيكون قد سمع من زملائه الذين حضروا اللقاء ما دار من حديث فيه.

وكان الفاروقي واحداً من ضباط الجمعيات السرية الذين أمر جمال باشا بإبعادهم عن دمشق وإرسالهم إلى جبهة غاليبولي حيث كانت الإصابات مرتفعة. وكان الناس يعتبرون إرسال العرب المشتبه بتآمرهم إلى خطوط الجبهة ليقتلوا هناك انه سياسة متعمدة يتبعها جمال باشا لسحق التمرد. ومن ناحية أخرى كانت هناك أسباب عسكرية وجيهة لإرسال الجنود لتعزيز جبهة غاليبولي حيث كان النظام العثماني يقاتل من أجل البقاء. وربما كان الفاروقي قد ارتاب، دون ان يبلغ ارتيابه حد اليقين، ان ارساله إلى غاليبولي يدل على ان جمال باشا يشتبه بأنه ارتكب جرم الخيانة.

ظل الفاروقي على اتصال بضباط الجمعيات السرية الذين بقوا في دمشق. وقد اطلع منهم على مزيد من تفاصيل ما كان يفعله الحسين وفيصل، وعلم منهم ان البقية من أعضاء الجمعيات السرية في دمشق شجعوا الحسين على قيادة ثورة عربية ضد الامبراطورية العثمانية إذا ما وافقت بريطانيا أولاً على تأييد بروتوكول دمشق: أي برنامج الجمعيات السرية لاستقلال العرب. وعلم أيضاً ان الحسين كان في الواقع قد كتب رسالة إلى البريطانيين في القاهرة في صيف عام ١٩١٥ ضمنها بروتوكول دمشق عارضاً هذا البروتوكول على انه مجموعة مطالبه شخصياً لتثبيته ملكاً لمملكة عربية تشمل غربي آسيا العربية بكاملها تقريباً.

في خريف عام ١٩١٥ فرّ الملازم الفاروقي من القوات العثمانية في غاليبولي وانتقل إلى خطوط الحلفاء، مدعياً أن لديه معلومات هامة يريد ان ينقلها إلى المخابرات البريطانية في القاهرة، فأرسل فوراً إلى مصر لاستجوابه. ولعله خاف ان يكون جمال باشا على وشك الحصول على اثبات لعضويته في المؤامرة على تركيا فقرر ان يهرب ما دام الوقت متاحاً للهرب. وربما كان يأمل في ان

يكتسب مجداً عن طريق القيام وحده بدور في عالم السياسة. وأياً كانت دوافعه فقد تصرف بحافز شخصي: إذ لا أحد عهد إليه القيام بأية مهمة.

كان الفاروقي يعرف القليل من اللغة الانكليزية، ومن الصعب ان نعرف من خلال السجل التاريخي غير المتكامل إلى أي مدى قد فهمه مستجوبوه فهماً صحيحاً أو إلى أي مدى جرى تلقينه الكلام من قبل أولئك الذين أرادوا ان يسمعوا الكلام الذي ادعوا انهم سمعوه منه. لقد ادعى هذا الضابط الشاب عندما استجوبه ضباط المخابرات البريطانية انه عضو في جمعية العهد، وهي جمعية عسكرية عربية سرية. وأتى على ذكر اسم الشخصية القيادية في هذه الجمعية والموجود في دمشق، الفريق ياسين الهاشمي، رئيس أركان الفرقة العثمانية الثانية عشرة، ومع ان الفاروقي اعترف انه ليس مفوضاً بأن يبحث مع مستجوبيه رسمياً مقترحات جمعية العهد، فقد تظاهر ـ لسبب ما ـ بأنه المتحدث باسم المنظمة، فقبله جيلبرت كلايتون رئيس المخابرات البريطانية في القاهرة بصفته المتحدث باسم المنظمة[٥]. ومع ان الرواية التي قدمها لم يتم التثبت منها، فقد صدقتها المخابرات البريطانية دون ان تجري مزيداً من التحقيق. والحقيقة ان الفاروقي لم يكن ممثلاً لجمعية العهد بل ولا لأية جماعة أخرى: لقد خُدع كلايتون.

إن ما أضفى صدقية على ادعاء الفاروقي انه يمثل منظمة العهد، هو انه علم ـ من زملائه في دمشق ـ بتفاصيل المراسلات البريطانية مع الشريف حسين واطلع على المطالب التي قدمها الحسين إلى القاهرة في صيف عام ١٩١٥.

لقد طلب الفاروقي، المتظاهر بأنه يتكلم نيابة عن ضباط الجيش العرب في دمشق، ان تقدم بريطانيا تعهداً بتأييد دولة عربية مستقلة ضمن الحدود التي رسمها الحسين. وعندما فعل ذلك، بدت فجأة معلوماته متكاملة في نظر المخابرات البريطانية. وقد رسخ في ذهن كلايتون ان الحقيقة الجوهرية هي ان التطابق بين مجموعتي المطالب لم يمكن مصادفة، فكلتاهما لا تختلفان عن المطالب عينها التي ما برح يقدمها المصري ـ مؤسس جمعية العهد ـ وغيره من العرب الذين يعيشون في المنفى في القاهرة منذ بداية الحرب. فإذا صح ان الجمعيات السرية تدعم الحسين، فلا يمكن في هذه الحالة النظر إلى أمير مكة على أنه يمثل فقط الجزء الذي يحكمه من شبه جزيرة العرب. فإذا كانت الجمعيات السرية العربية بالقوة التي صورها بها الفاروقي، وبما ان كلايتون تصور خطأ انها كذلك، فالحسين بالتالي ينطق باسم الألوف من الجنود العثمانيين والملايين من الرعايا العثمانيين.

وقد أنذر الفاروقي كلايتون وزملاءه ان عليهم ارسال رد فوري إلى الحسين. ووفقاً لما قاله الفاروقي، كان على البريطانيين ان يضمنوا استقلال الشرق الأوسط الناطق بالعربية إذا أرادوا ان تقود منظمة العهد تمرداً داخل الامبراطورية العثمانية. وقد أمهل هذا الشاب بريطانيا، في

(٥) ايلي كدوري، **في المتاهة الانكليزية ـ العربية: مراسلات مكماهون ـ الحسين ومترجموها ١٩١٤ ـ ١٩٣٩** (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٦)، ص ٧٥.

انذار نهائي، مدة اسبوعين فقط لقبول العرض، وإلاّ فإن الحركة العربية، كما قال، سوف تلقي بكامل دعمها وراء المانيا والامبراطورية العثمانية.

لقد استُفزت القاهرة. وفي ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥ كتب رونالد ستورز إلى فيتز جيرالد/ كيتشنر قائلاً: إن المسألة العربية بلغت حالة حادة»[٦]. وفي الوقت نفسه أعد كلايتون مذكرة عرض فيها محادثاته مع الفاروقي فأرسلها إلى الجنرال ماكسويل، قائد الجيش البريطاني في مصر، الذي سارع إلى إرسال برقية إلى كيتشنر في ١٢ تشرين الأول (اكتوبر) قال فيها: «ان هنالك منظمة قوية» خلف خطوط العدو، وان مقترحات الحسين جاءت فعلاً من تلك المنظمة، وما لم يتم الوصول إلى اتفاق معها سينحاز العرب إلى العدو[٧][*].

والظاهر ان اتباع كيتشنر في القاهرة اعتقدوا ان قيام ثورة عربية سيمكنهم من انقاذ جيوش الحلفاء التي كانت تقاتل في سبيل انقاذ أرواح جنودها عند أطراف شبه جزيرة غاليبولي في الدردنيل. كان قائد الجيش البريطاني في غاليبولي هو إيان هاملتون، من رجال كيتشنر، والمرجح ان اتباع كيتشنر في القاهرة كانوا على اتصال معه لمساعدتهم في اقناع المندوب السامي في مصر، سير هنري مكماهون، الذي غلب عليه التردد، بتلبية المطالب العربية. ومما يدل على انهم فعلوا ذلك، تصريح أدلى به مكماهون بعد عام، وتنصل فيه من مسؤوليته عن الثورة العربية (التي لم تكن ناجحة حتى ذلك الحين). قال مكماهون:

«كان أتعس يوم في حياتي عندما أنيطت بي مسؤولية الاشراف على الحركة العربية، وأرى انه لا بد من بضع كلمات لأبيّن ان لا علاقة لي بذلك: انه عمل عسكري محض. بداية الأمر كانت طلباً عاجلاً من سير ايان هاملتون أرسله من غاليبولي. وقد توسّلت وزارة الخارجية إليَّ ان أتخذ اجراء فورياً لسحب العرب من الحرب. في ذلك الحين كان جزء كبير من القوات في غاليبولي وكامل القوة التي في بلاد الرافدين تقريباً، مؤلفة من العرب»[٨].

وبينما كان مقر المعتمد البريطاني يناشد لندن بإلحاح ان تأذن بتلبية مطالب الفاروقي، ذكر مقر المعتمد البريطاني ان هذه المطالب قابلة للتفاوض: أي ان الشاب العربي سيقدم تنازلات حيثما تقتضي الضرورة. وقد أفلح الفاروقي في ان يبقى خلال الأسابيع والشهور التالية في قلب الحوار. وكان هذا الشاب، في ما أصبح خدعة كبرى، يرسم ويعيد رسم بلدان وامبراطوريات، من خلال تبادل رسائل بين مقر المعتمد البريطاني، وأمير مكة وقادة القوميين العرب، وكان كل طرف من هذه الأطراف يظن ان الفاروقي هو مبعوث أحد الطرفين الآخرين، لقد قدم الفاروقي

---

(٦) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٧) المرجع نفسه، ص ٧٨.

(*) انه تأكيد غريب، إذ كان العرب فعلاً في معسكر العدو.

(٨) ايلي كدوري، **رواية شاثام هاوس ودراسات شرق أوسطية اخرى** (لندن: ديدنفيلد ونيكولسون، ١٩٧٠)، ص ١٤.

نفسه في رسالة إلى الحسين على انه عضو في جمعية العهد يلقى أذناً صاغية من البريطانيين، أما في القاهرة فقد تظاهر بأنه يفاوض باسم الحسين. وقد حاول فيصل ان يكتشف هوية هذا العربي الغامض الذي اكتسب كل هذه الأهمية في القاهرة، فلم يستطع ان يعرف سوى اسمه، وهذا لم يكن يعني له شيئاً. وقال فيصل في تقرير كتبه لوالده الحسين «لم أعرفه»(٩).

(٤)

كان كلايتون قوي النزعة إلى معارضة مطالب فرنسا في داخل سورية (عند خط يمتد من حلب إلى دمشق ماراً بحماة وحمص). وقد ذكر كلايتون ان الفاروقي قال ان الحسين لن يسمح لفرنسا بالاستيلاء على حلب وحماة وحمص ودمشق. وقد لا نعرف أبداً هل كان كلايتون ينقل بدقة ما قاله له الفاروقي فعلاً، أو كان يخطىء في نقل هذا الكلام، أو كان ينقل ما فهمه بعبارات من عنده. وكان كلايتون يقر بأنه لا يمكن استبعاد فرنسا من ساحل سورية ـ لبنان الذي يقطنه مسيحيون يحظون برعاية فرنسية. ومرة أخرى ذكر ان الفاروقي قبل بوجهات نظره، وانه يبدو مستعداً، باسم الحسين، للتنازل عن المطالب العربية في تلك المنطقة. أما الفاروقي فقد أبلغ الحسين ان الجانب البريطاني طلب إليه ان يقدم هذا التنازل ـ وانه رفض.

وعلى أساس تقارير كلايتون، أبرق المندوب السامي، سير هنري مكماهون، إلى وزارة الخارجية ناقلاً إليها قول الفاروقي ان أمير مكة لن يصرّ على التمسك بمطلبه الأصلي بأن تمتد حدوده الغربية حتى البحر. غير انه سيقاوم «بقوة السلاح» أية محاولة فرنسية لاحتلال مقاطعات حلب وحماة وحمص ودمشق(١٠). وكان مكماهون وكلايتون يطلبان تفويضاً بقبول هذه الشروط.

ولكن الكلمات التي استخدمها مكماهون عندما كان يشير إلى أماكن جغرافية، كانت كلمات ضبابية مبهمة. فهل كان، مثلاً، يشير إلى مدينة دمشق، إلى محيط دمشق أو إلى ولاية دمشق؟ هل كانت الكلمة الانكليزية التي استخدمها ومعناها مقاطعة (دستريكت) تعني محيط مدينة أم ولاية؟ وهل كان الفاروقي هو الذي تحدث عن مقاطعات، أم ان مكماهون وكلايتون هما اللذان تحدثا عن مقاطعات؟ وهل كان البريطانيون يقصدون بالمقاطعات مدناً؟

منذ ذلك الحين والنقاش المرير ما برح يدور حول مغزى المطالبة بحلب ـ حماة ـ حمص ـ دمشق. وخلال عقود انقضت منذ ذلك الحين طرح أنصار فلسطين العربية حجتهم القائلة ان هذه الأسماء الجغرافية الأربعة إذا ما فهمت فهماً صحيحاً، فهذا يعني ان القاهرة البريطانية وعدت بأن تكون فلسطين عربية، أما أنصار فلسطين اليهودية فيطرحون حجة معاكسة. هذا النقاش كان بمعنى ما دون جدوى. وسنرى انه عندما حان وقت اعطاء تعهدات، استخدم مكماهون عن قصد عبارات شديدة الالتواء قصد منها ألّا يلزم نفسه بشيء البتة.

---

(٩) كيو، مكتب السجل العام» أوراق كيتشنر، ٣٠/٥٧ ٤٨.. الوثيقة ر.ر. ٢٦.

(١٠) لندن، مكتب سجلات مجلس اللوردات، مجموعة بيفربروك، أوراق لويد جورج. ف ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٣. الوثيقة ١٧.

إذا كان كلايتون هو صاحب التعريف الجغرافي حلب ـ حماة ـ حمص ـ دمشق، فإنه ربما كان يفكر بسورية ولبنان وبكيفية فصل داخل البلاد عن الساحل الخاضع للنفوذ الفرنسي. إن ساحل البحر يمثل أحد خطين للحضارة في سورية يمتدان من الشمال إلى الجنوب. والمدن الأربع تمثل الخط الآخر. وهذه المدن بموقعها بين الجبال والبادية تحدد الممر الضيق الطويل الذي يشكل المنطقة المستثمرة زراعياً في داخل سورية. إن مدن دمشق وحلب وحمص وحماة تبدو على خريطة بريطانيا المثبتة في الموسوعة البريطانية طبعة عام ١٩١٠، وهي الطبعة التي كانت متداولة آنذاك، انها المدن الوحيدة في داخل سورية وهكذا فإنها كانت المدن التي يمكن لإنسان انكليزي ان يذكرها بالاسم إذا ما أراد تعريف المنطقة الداخلية من سورية. ومع التسليم بأن هذه المدن غير متماثلة، مما جعل كبار المؤرخين(*) يرون ان من غير المنطقي جمعها معاً في مجموعة واحدة، فإن منطق جمعها معاً يبدو أمراً جلياً بالنسبة لقارىء الموسوعة البريطانية.

وقد كانت لهذه المدن خاصية هامة أخرى مشتركة: فهي المدن الواقعة على خط السكة الحديدية. إن خط «الجمعية العثمانية لسكة حديد دمشق ـ حماة وامتداداتها» الذي بناه الفرنسيون وافتتح في عام ١٨٩٥، يصل حلب في الشمال بدمشق في الجنوب[١١]. وفي دمشق يكمل المرء رحلته بواسطة الخط الحديدي الحجازي الذي يمتد جنوباً إلى المدينة المنورة، ويصل سورية بأرض الشريف حسين. ومن المؤكد ان ذلك بدا على جانب كبير من الأهمية آنذاك. وإذا كان الفاروقي وليس كلايتون، هو أول من ذكر هذه المدن الأربع بأسمائها، فلا ريب في ان هذا ما دار في ذهنه.

وفي عصر كانت السكك الحديدية فيه تعتبر ذات أهمية قصوى عسكرياً وسياسياً، فإنه يفترض في أي جندي أو سياسي يمثل الحسين ويفاوض على الأرض، ان يكون قد أصر على كسب السيطرة على محطات السكك الحديدية: ليس فقط محطة دمشق باعتبارها عاصمة الجنوب، ومحطة حلب باعتبارها عاصمة الشمال، بل أيضاً المحطتين اللتين تربط بينهما: حمص وحماة.

إن الخبرة المكتسبة حديثاً قد أملت هذه المطالبة. فقد كان قادة حزب تركيا الفتاة يخططون (قبل ان توقف الحرب خطتهم) للسيطرة على الحجاز عن طريق اشرافهم على الخط الحديدي الممتد من دمشق جنوباً إلى المدينتين الرئيستين في الحجاز. وكان أمراً مفروغاً منه ان يتوقع المرء من الحسين إذا ما انحاز إلى الجانب الرابع في الحرب ان يسلك الطريق المعاكس لاستراتيجيتهم: أي ان يسيطر على داخل سورية بالإشراف على خطها الحديدي.

وسواء أكان كلايتون وأصدقاؤه أم لم يكونوا هم الذين صاغوا مطالبة الفاروقي بخط حلب ـ دمشق، فقد كانوا يخشون ألّا يفهم المسؤولون البريطانيون الآخرون أهمية تلبية هذا الطلب. وفي اشارة من رونالد ستورز إلى سير ملني تشيثام، رئيسه في مقر المعتمد البريطاني، أي القائم

(*) البروفسور ايلي خضوري واحد منهم.

(١١) كارل بايدكر، **فلسطين وسورية: مع الطرق عبر بلاد الرافدين وبابل وجزيرة قبرص، دليل الرحالة**، الطبعة الخامسة، أعيد تشكيله وتم تعزيزه (لايبزيغ: كارل بايدكر، ١٩١٢)، ص ١٥٧.

في رئاسة المقر ريثما يصل مكماهون، كتب ستورز إلى فيتز جيرالد/كيتشنر يوم عيد الميلاد متوسلاً إليهما أن يعطيا الأولية إلى التفاوض مع العرب ومضيفاً «أرجو المعذرة لازعاجكم بهذه المصاعب، ولكن لو عرفتم ما لقيناه، كلايتون، وأنا من عنت طوال فصل الخريف الماضي لكي نجعل سير ملني يتقدم بأي اقتراح أو يبدي أي اهتمام في المسألة العربية، لفهمتم سبب قلقنا»[١٢].

كان من حسن حظ كلايتون ان سير مارك سايكس توقف في القاهرة مرة أخرى ـ كما ذكرنا سابقاً ـ في طريق عودته من الهند إلى لندن في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥. وإذ روى كلايتون وزملاؤه قصة الفاروقي أمام سايكس فقد نقلوا إليه عدوى اعتقادهم بالأمر المدهش، أي امكانية انحياز النصف العربي من الامبراطورية العثمانية إلى جانب الحلفاء في الحرب. كان هذا هو النبأ المدهش الذي استقبل به سايكس عند وصوله إلى القاهرة، وهذا ما غير حتماً كل الحسابات.

لقد كان نبأ ذا خصوصية بالنسبة لسايكس ان يعلم ان العالم الناطق بالعربية يمكن ان يكون عاملاً رئيساً في الحرب. فقد كان ينظر إلى الأمور السياسية في المنطقة بمنظار الترتيبات التي كانت قد تمت بين الدول الكبرى الأجنبية المتنافسة. أما مصالح السكان أهل البلاد وأمانيهم، فلم يكن لها أي شأن في حساباته. لقد كان دائم الاعجاب بالطبقة الحاكمة التركية ولكنه لم يلق بالاً إلى السكــان رعايا الامبراطورية العثمانية في آسيا. وعندما كان يطلق أوصافاً على هؤلاء الرعايا خلال دراسته الجامعية، فقد كانت أوصافه عبارة عن تمرين في الألفاظ المهينة.

كتب عن العرب سكان المدن انهم «جبناء» وانهم «وقحون» وانهم «أشرار بقدر ما تسمح لهم أجسامهم الهزيلة». ووصف العرب البدو بأنهم «حيوانات جشعة مفترسة»[١٣]، ومع ذلك فإن هؤلاء العــرب كانــوا سيصبحــون حلفاء بريطانيا الرئيسين في القتال الذي سيشهده الشرق الأوسط، وفقاً للمعلومات التي زوّده بها كلايتون. إن سايكس الذي كانت له شهرة قبول الآراء والحجج دون ان يأخذ الوقت الكافي لتمحيصها، قد أظهر الآن انه قادر على نبذها بالسهولة نفسها. لقد تحول فجأة إلى نصير لقضية شعوب الشرق الأوسط.

كان سايكس منذ أيام الدراسة في المدرسة يشعر بخوف من اليهود لازمه منذ ذلك الحين، وكاد هذا الخوف يصبح هاجساً إذ كان يلمح شبكة مؤامرتهم الدولية الخطرة في الكثير من الزوايا المعتمة. ولكن كانت هنالك جماعة أخرى كان يشعر نحوها شعوراً أشد عنفاً، فقد كتب مرة يقول «حتى اليهود فيهم بعض الخصال الجيدة، أما الأرمن فليس لديهم شيء من ذلك»[١٤]. على

(١٢) كيو، مكتب السجل العام، أوراق كيتشنر ٣٠/٥٧ ٤٧ الوثيقة ق.ق. ٤٦.

(١٣) هذه وغـيرهـا من الاقوال المقتبسة تمّ جمعها في كتاب: إيلي كدوري، **انكلترا والشرق الأوسط: تدمير الامبراطورية العثمانية، ١٩١٤ ـ ١٩٢١** (هاسوكس، سكس: مطبعة هارفستر، ١٩٧٨)، ص ٦٩.

(١٤) المرجع نفسه.

ان سايكس التقى الآن بعض زعماء الأرمن في القاهرة، واقترح بحماسة انشاء جيش أرمني يتم تجنيد أفراده من أسرى الحرب ومن الأرمن المقيمين في الولايات المتحدة، من أجل غزو تركيا. وذكر انه يستطيع ان يخرج هذا الجيش إلى الوجود خلال ثمانية أسابيع(١٥).

إن سايكس هذا الذي دبت فيه الحماسة حديثاً إزاء أبناء الشرق الأوسط، قد انحاز كلياً إلى رأي كلايتون القائل ان الجيوش العربية قد توفر مفتاح النصر. فأوعز إليه كلايتون ان يعود إلى لندن مستعداً لطرح المقولة الجديدة للقاهرة، أي ان الحسين يمكن ان يكون أهم من الفرنسيين من حيث التعجيل بإنهاء الحرب في الشرق.

وقد أقنع كلايتون أيضاً أوبري هربرت عضو البرلمان الذي كان يخدم في جهاز المخابرات في القاهرة، وكان يستعد للعودة إلى لندن، والذي تعهد بأن يقابل اللورد كيتشنر ووزير الخارجية سير ادوارد غراي، ليشرح الأمور لهما. وقد أعد هربرت، بمساعدة كلايتون، مسودة مذكرة شديدة اللهجة تحث الفرنسيين على التخلي عن مطالبتهم بدمشق وحلب وحمص وحماة، من أجل التنازل عن هذه المدن إلى الشريف حسين.

(٥)

عاد سايكس إلى لندن حاملاً معه الكثير من الأمور الجديدة التي سيبلغها إلى المسؤولين ويناضل عنها، ليجد في انتظاره ترحيباً حاراً في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥. كان ذلك عندما اقترح انشاء المكتب العربي واتخذ الخطوات الأولى لانشائه (أنظر الفصل العاشر).

ما من أحد غيره التقى بكل مسؤول بريطاني هام من العاملين في البلقان ومصر فالهند. وقد رتّب له موريس هانكي مقابلة مع الملك جورج، كما رتّب له ان يمثل أمام لجنة الحرب المنبثقة عن مجلس الوزراء والتي كان هانكي أمين سرّها.

إن الرسالة الهامة التي نقلها سايكس إلى مجلس الوزراء هي ان العرب ـ الذين كان سابقاً يستهين بهم كعامل في الحرب ـ أصبحوا الآن على أهمية بالغة للحلفاء، وأنه كان أمراً حيوياً وبالغ الأهمية التوصل إلى اتفاق مع الحسين.

كانت هناك حقيقة يبدو ان القاهرة وسايكس لم يدركاها، أما في لندن فقد عرفوها، وهي انه كان على بريطانيا ان تدفع ثمناً ـ وثمناً غالياً ـ لكي تنال موافقة فرنسا على اعطاء وعود إلى الشريف حسين، أي انه كان على بريطانيا ان تقدم لفرنسا تنازلات كبيرة لقاء السماح لها بتقديم تنازلات للعرب. كان كيتشنر وغراي على استعداد لدفع الثمن، أما الآخرون فلم يكن لديهم استعداد لذلك.

كان رأي اللورد كورزون، نائب الملك السابق في الهند، انه يجب ألّا تعطى وعود للعرب لأنهم

(١٥) ادلسون، **سايكس**، ص ١٨٩.

«شعب يقاتلنا في هذا الوقت بأقصى ما يستطيعون القتال»[١٦]. وكان اوستين تشامبرلين، وزير الدولة الجديد لشؤون الهند معارضاً أيضاً لإعطاء هذه الوعود. ولكن كيتشنر، الذي ساند سايكس وكلايتون وستورن، أصرّ اصراراً شديداً على تفويض القاهرة بالاستجابة فوراً والتوصل إلى اتفاق مع الحسين. وكانت آراء كيتشنر هي النافذة في ذلك الحين. وهكذا فإن سير هنري مكماهون، بتفويض وتوجيه من لندن، استأنف المراسلات مع مكة ـ مراسلات مكماهون الشهيرة، التي ما برح معناها موضوع نقاش طويل من قبل أنصار القضيتين العربية واليهودية في فلسطين[*].

في أثناء ذلك كان الحسين قد أرسل رسالة ثانية إلى مكماهون اتهمه فيها «بالفتور والتردد» بسبب احجامه عن بحث موضوع الحدود. وقال الأمير في رسالته انه لو كانت هذه المطالب مطالبه وحده لكان البحث في هذا الموضوع قابلاً للتأجيل إلى ما بعد إنتهاء الحرب. لكنها ليست مطالبه الخاصة بل انها لا تمثل اقتراحاته الخاصة. إنها طلبات صاغها آخرون: صاغها «شعبنا»[١٧]، وقد فهم المسؤولون في مقر المعتمد البريطاني في القاهرة آنذاك ان ذلك يعني أعضاء الجمعية السرية الغامضة التي تخيلوا ان لها اتباعاً على نطاق جماهيري في العالم العربي.

في ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥ أرسل رداً للشريف حسين بروحية مختلفة. فهو بعد ان تلقى تعليمات من اللورد كيتشنر باعطاء التعهدات اللازمة، وافق متردداً على الدخول في مباحثات بشأن مناطق وحدود محددة. ولكن من الجلي انه لم يكن مستعداً لأن يأخذ على عاتقه مسؤولية شخصية بشأن قطع التزامات محددة، ولذلك عمد إلى لغة تتسم بالمراوغة. فهو من جهة وافق على ان ينال العرب استقلالهم بعد الحرب، ولكنه، من جهة أخرى، أشار إلى ان الحاجة ستستدعي وجود مستشارين ومسؤولين أوروبيين لتأسيس إدارة للحكم في البلاد العربية، وأصرّ على ان يكون هؤلاء المستشارون والمسؤولون بريطانيين حصراً. بعبارة أخرى، ستكون أية مملكة عربية «مستقلة» في الشرق الأوسط بعد الحرب، محمية بريطانية.

ولدى سؤاله ما هي المناطق التي ستشملها المملكة العربية المستقلة المحمية من قبل بريطانيا، طالب مكماهون في رده بتقسيم الأراضي التي يطالب بها الحسين إلى أربع مناطق وأوضح ان بريطانيا لا تستطيع ان ترتبط بتأييد مطالبة الحسين بأي منها.

وقد بدأ مكماهون جوابه بالقول انه يجب على ا لحسين ان يتخلى عن مطالبته بالأرض الواقعة غربي مقاطعات دمشق وحلب وحمص وحماة. وكان الفاروقي قد أقر (أو ان مكماهون ظن على

---

(١٦) كدوري، **شاثام هاوس**، ص ١٥.

(*) كما ذكرنا سابقاً حاجج انصار فلسطين العربية على مدى عقود من السنين بأن التعابير الجغرافية التي استخدمها مكماهون، إذا ما فسرت تفسيراً صحيحاً، تدل على أن مكماهون تعهد بأن تكون فلسطين عربية. أما انصار فلسطين يهودية فقد قدموا حججاً معاكسة.

(١٧) مذكرة الشريف حسين الثانية إلى سير هنري مكماهون، ٩ أيلول ١٩١٥.

أقل تقدير، ان الفاروقي أقر بذلك) بأن الحسين سيقبل بهذا التخلي. وفي وقت لاحق كتب مكماهون يقول إن الأراضي التي لن يحصل عليها الحسين والعرب هي سواحل سورية ولبنان وفلسطين، مع امكانية رسم خط حدودي في مكان ما من الأردن الحالي. إن اللغة التي استعملها يمكن قراءتها على هذا النحو، ولكن عند قراءتها قراءة طبيعية أكثر يكون قد أشار هنا إلى سورية ولبنان فقط، دون الاشارة إلى فلسطين.

وقد أبدى مكماهون ملاحظة بشأن الجزء الشرقي من الشرق الأوسط الناطق بالعربية، أي ولايتي البصرة وبغداد في بلاد الرافدين قائلاً ان موقف بريطانيا الثابت ومصالحها تقتضي ان توجد «ترتيبات ادارية خاصة» لهاتين الولايتين. أما هل ستترك هذه الترتيبات أية فسحة لتأكيد السيادة العربية ـ وإذا كان الأمر كذلك فمتى وإلى أي مدى ـ هذا الأمر بقي دون بحث.

أما بشأن القسم الغربي ـ سورية وفلسطين ـ فإن بريطانيا تستطيع ان تقدم للحسين ضمانات تتعلق فقط بتلك المناطق «التي يمكنها ان تتصرف فيها من دون الحاق ضرر بمصالح حليفتها فرنسا». وبما ان فرنسا كانت في ذلك الحين تدعي لنفسها تلك المناطق بكاملها (في الحقيقة بحث سايكس مع الفاروقي مطالبة فرنسا بفلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥) فقد ترتب على ذلك ان بريطانيا لم تتمكن من التعهد بتأييد مطالب العرب فيها أيضاً ـ بل ولا حتى مطالبتهم بدمشق وحلب وحمص وحماة.

لم يبق إذن سوى شبه جزيرة العرب، التي كانت آنذاك مقسمة بين عدد من الزعماء، والحسين واحد منهم. وكانت بريطانيا في ذلك الحين تقيم علاقات معاهدة مع زعماء آخرين في شبه الجزيرة العربية، من ضمنهم ابن سعود، خصم الحسين. وقد ذكر مكماهون في رسالته انه لا يستطيع ان يعد الحسين بأي شيء يسيء إلى علاقات بريطانيا مع الزعماء العرب الآخرين. ولذلك وبعملية الحذف لم تلزم بريطانيا نفسها البتة بتأييد مطالب الحسين في أي مكان.

ووفقاً لخلاصة نشرت لاحقاً في «النشرة العربية» (العدد رقم ٥ تاريخ ١٨ حزيران (يونيو) ١٩١٦) وهي نشرة سرية تعد لاطلاع القادة العسكريين والسياسيين ورؤساء المخابرات البريطانيين، كانت نتيجة المراسلات ان حكومة جلالته أبدت استعداداً لتشجيع الاستقلال في آسيا الناطقة باللغة العربية ولكنها رفضت إلزام نفسها في ما يتعلق بأشكال الحكومات التي ستقام في المنطقة أو بالحدود الدقيقة.

وكان مكماهون، وهو البيروقراطي صاحب الخبرة، قد رأى الحاجة لأن يكون غير ملتزم البتة، ولم تكن قد جرت بعد المفاوضات بين سايكس والجانب الفرنسي في موضوع مستقبل الشرق الأوسط ـ الذي كان يجري توصيفه آنذاك ـ ولم يكن أحد في الحكومة البريطانية يعرف معرفة أكيدة ما الذي ينبغي التنازل عنه لفرنسا، ولاحقاً، لروسيا. وكانت أوامر كيتشنر إلى مكماهون تقضي بعدم خسارة التحالف مع الحسين. ولكن المندوب السامي خاف ان يجعلوا منه كبش الفداء إذا مضى فعلاً في تلبية مطالب الحسين، وتبين في ما بعد ان تلك المطالب تتضارب مع التزامات أخرى مناقضة لها قد يطلب إلى بريطانيا تقديمها.

ولم تكن هذه المخاوف بلا مسوغ، فوفقاً لتحليل ويندهام ديدز ـ الخبير في الشؤون العثمانية في جهاز المخابرات في القاهرة ـ للوضع في مطلع عام ١٩١٦، كانت هناك ثلاث فئات من العرب. وبكل صدق لم يكن باستطاعة بريطانيا ان تلبي مطالب أي من الفئات الثلاث. هذه الفئات هي: السوريون وهدفهم الرئيس عدم السماح بدخول الفرنسيين المكروهين إلى بلادهم (وقد كتب يقول «يكاد يكون أمراً صعباً ان نفسر هذا الكره غير العادي...» ومع ذلك كان الكره موجوداً). وبطبيعة الحال كان ذلك عكس مطالب فرنسا. والفئة الثانية الحسين، وهدفه ان يكون على رأس مملكة عربية. ولكن ديدز قال ان معظم العرب وجميع الأتراك سيعارضون ذلك. وقد كتب قائلاً: «أظن ان وجهة نظر معظمنا ووجهة نظر كثيرين من العرب وجميع الأتراك» هي ان «هذه فكرة غير عملية». وكتب ديدز ان العرب الآخرين غير مستعدين لقبول الحسين زعيماً لهم. وأخيراً هناك الفئة الثالثة، أي عرب العراق الذين (حسب اعتقاده) يريدون ان يستقلوا ولكنهم يقاومون نية حكومة الهند بضمهم إليها وفرض حكمها عليهم. وكان ديدز يخشى ان تكون الصعوبات التي تعترض طريق التوصل إلى تفاهم مع العرب، تبعاً لذلك، صعوبات «لا يمكن تذليلها»[١٨].

ولذلك كان من الخطر بمكان بالنسبة لمكماهون، بصفته مندوباً سامياً، ان يقدم للحسين التزامات ثابتة. وكان يعتقد ان وينغيت بنفاد صبره قد حاول دفعه إلى تقديم هذه الالتزامات. ولكن رجينالد وينغيت كتب إلى كلايتون قائلاً: إن مكماهون أخطأ في تفسير آرائه، وهو ما فعله أيضاً اللورد هاردينج، نائب الملك في الهند. فقد قال في رسالته:

«أخشى ان يكون المندوب السامي واللورد هاردينج كلاهما قد حصلا على انطباع باني من المؤمنين بانشاء مملكة عربية موحدة برئاسة الشريف ـ بطبيعة الحال هذا التفكير بعيد كل البعد عن آرائي الحقيقية، ولكن كان مناسباً لي، وأعتقد انه مناسب لنا جميعاً، ان نعطي قادة الحركة العربية هذا الانطباع، ولنا تغطية كافية تماماً في المراسلات التي جرت لاظهار اننا نتصرف مع العرب بحسن نية إلى الحد الذي وصلنا إليه الآن»[١٩].

كان جيلبرت كلايتون يعارض معارضة شديدة تعريف علاقات بريطانيا مع العرب قبل ان تنتهي الحرب، وكان يعتقد ان رسائل مكماهون قد نجحت في تأجيل الأمر وفي تجنب اعطاء أي التزام ذي معنى. وبعد مرور شهور عدة لخص كلايتون ما فعله مكماهون فكتب قائلاً: «لحسن الحظ اننا كنا حقيقة حريصين جداً على عدم الزام أنفسنا بأي شيء»[٢٠].

لقد رد الحسين على رسالة مكماهون بقوله إنه لا يستطيع قبول صيغة حلب ـ حماة ـ حمص ـ

---

(١٨) جون بريسلاند (الاسم المستعار لغلاديس سكيلتون)، **ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز ١٨٨٣ ـ ١٩٢٣** (لندن: مكميلان، ١٩٤٢)، الصفحتان ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(١٩) جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان. أوراق جيلبرت كلايتون، ص ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

(٢٠) رونالد ساندرز، **أسوار القدس العالية: تاريخ اعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين** (نيويورك: هولت دراينهارت وونستون، ١٩٨٣)، ص ٢٥٣.

دمشق، وانه يصر على ان يحصل على ولايتي حلب وبيروت. وفي اشارة إلى مطالبة فرنسا بلبنان، كتب قائلاً: ان «أي تنازل يهدف إلى إعطاء فرنسا أو أية دولة أخرى ملكية قدم مربع واحد من الأرض في تلك الأجـزاء هو أمـر مرفـوض». وهكذا أخفق الحسين في التوصل إلى اتفاق مع مكماهون، ومع ذلك شعر انه مرغم على تأييد الحلفاء؛ لقد كان قادة حزب تركيا الفتاة عازمين على عزله، ولذلك كان عليه ان يثور عليهم سواء قبلت بريطانيا بشروطه أو لم تقبل. وقد أشار الحسـين بعد ذلك ببضع سنين في حديث بينه وبين ديفيد هوغارت، أحد العاملين في المكتب العربي للمخابرات البريطانية في القاهرة، إلى انه في ما يتعلق بفلسطين وبلبنان أيضاً وببقية الأراضي في الشرق الأوسط، لا يعتبر ان الأمور قد سويت، بل يرى ان كل الأمور قابلة للتفاوض في مؤتمر الصلح. ووفقاً لما قاله هوغارت «لقد شبّهنا، نحن وهو، بشخصين على وشك ان يسكنا بيتاً واحداً، ولكنهما لم يتفقا على توزيع الطوابق والغرف بينهما»[٢١].

في لندن، كانت وجهة نظر وزارة الخارجية ان الوعود لن يحين أبداً موعد الوفاء بها؛ ذلك ان بريطانيا تعهدت بتأييد استقلال العرب فقط إذا ثار النصف العربي من الامبراطورية العثمانية على السلطان ـ وهذا (حسب اعتقاد وزارة الخارجية) لن يحدث أبداً. وبما ان العرب لن يفوا بما يترتب عليهم بموجب الصفقة، فلن تكون بريطانيا ملزمة بأن تفي بما يترتب عليها منها. ان وزارة الخارجية، التي لم تكن تعتمد على كلايتون، بل كانت لها مصادر معلوماتها الخاصة، لم تعتقد بأن العالم الناطق بالعربية كان على وشك الانتقال من جانب إلى آخر في الحرب، ولكن وزير الخارجية، سير ادوارد غراي، لم ير ضرراً في السماح لكيتشنر وأعوانه بأن يعدوا بما يشاؤون على سبيل اغراء العرب بالانشقاق. وقد قال غراي لاوستن تشامبرلين انه يجب ألّا يقلق من جراء العروض التي تقدمها القاهرة لأن «الأمر كله عبارة عن قلعة في الهواء لن تخرج إلى حيّز الوجود»[٢٢].

أما مكماهون فقد كان، من جهة أخرى، قلقاً خشية الا يكون الأمر كله قلعة في الهواء. انه قدم من حكـومة الهند، التي كان مصدر قلقها الدائم احتمال حدوث اضطرابات وطنية. وقد أسرّ مكماهون لويندهام ديدز بأن خوفه ليس ناشئاً عن احتمال فشل خطة قيام ثورة عربية، بل هو ناشيء عن احتمال نجاحها ـ لأنها عندئذٍ ستشكل خطراً على بريطانيا[٢٣].

ولما كان نائب الملك في الهند يدعي ان مصالح الهند قد أهملت في مراسلات مكماهون ـ الحسين، فقد قال له مكماهون «كان عليّ بالضرورة ان أتعمد الابهام، فحكومة جلالته، من جهة، تكره ان تلتزم بعمل محدد في المستقبل، ومن جهة أخرى سيكون من شأن أي تحديد مفصّل لمطالبنا ان

(٢١) دون، **العثمانية**، ص ١١٥.
(٢٢) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، ص ١٠٨.
(٢٣) ريسلاند، **ديدز بك**، ص ٢٤٧.

يفزع العرب». وادعى ان المفاوضات مع الحسين «لن تثبت حقوقنا... ولن تقيّد أيدينا»[٢٤].

إن هذا التفسير للأمور قد أزعج نائب الملك، فكتب إلى وزير الدولة لشؤون الهند بشأن إدعاء مكماهون «ان المفاوضات هي مجرد كلام ولن تثبت حقوقنا ولن تقيد أيدينا في تلك البلاد. وقد يكون الأمر كذلك في نهاية الأمر، لا سيما إذا استمر العرب في مساعدة العدو، ولكني لا أحب قطع تعهدات إذا لم تتوفر نية الوفاء بها»[٢٥].

في أوائل عام ١٩١٦ كتب عزيز المصري، زعيم الجمعية السرية العربية، إلى اللورد كيتشنر، فطرح الجدال من الجانب الآخر. فقد كتب (بالفرنسية لغة الدبلوماسية) قائلاً إن بريطانيا لا يمكنها تحقيق أهدافها في الشرق الأوسط الناطق بالعربية ما لم تكن مستعدة لأن تترك لشعوب المنطقة حرية ممارسة الاستقلال الكامل والحقيقي. وقال في رسالته المكتوبة بالفرنسية إن الذين يتحدث باسمهم لا يريدون سيطرة بريطانيا ولا حمايتها[٢٦]. فهم لن يقبلوا ما يسميه مكماهون وكلايتون الاستقلال العربي، بل يطالبون بالاستقلال الحقيقي. وقال انهم لن يؤيدوا بريطانيا إذا كان في نيتها ان تحكمهم ـ وهذا بطبيعة الحال هو بالضبط ما كان في نية مكماهون وكلايتون ان تفعله بريطانيا.

كان المصري قد كشف زيف الموقف البريطاني. فقد كان كيتشنر وأتباعه في حاجة ماسة إلى كسب التأييد العربي ولكنهم لم يكونوا مستعدين لدفع الثمن الذي يطلبه الأمير حسين لقاء هذا التأييد. ولذلك حاولوا الغش بتلبية مطالب الحسين مع انهم في الحقيقة كانوا يقدمون له عملة مزيفة هي كلام من دون معنى.

وكان المصري والفاروقي والأمير حسين بدورهم يقدمون لبريطانيا عملة مزيفة مماثلة، ولو ان كلايتون وزملاءه لم يتنبهوا إلى ذلك، فلم يكن عند الحسين جيش، ولم يكن للجمعيات السرية اتباع منظورون. وكان كلامهم عن حشد عشرات أو مئات الألوف من الجنود العرب لدعم قضيتهم. سواء أصدقوه هم أنفسهم أم لم يصدقوه، كلاماً من نسج الخيال.

إن الفاروقي الذي كان لدى وصوله أول مرة قد وعد بثورة عربية، قد بدّل قصته مع حلول الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، اليوم الذي قابل فيه سير مارك سايكس: فقد قال في هذه المقابلة انه لا يمكن قيام ثورة عربية ما لم يتم أولاً انزال جيوش الحلفاء بقوة كبيرة على الساحل السوري. والحسين أيضاً، الذي كان يأمل ان تكون بريطانيا هي البادئة عسكرياً، رفض الاقدام على عمل مدعياً ان القيام بالثورة سابق لأوانه. بعبارة أخرى، لن يفعل العرب شيئاً ما لم تصل الجيوش البريطانية إلى مسرح العمل. وقد قبل سايكس هذا الكلام على علاته واستخلص منه انه أمر ملح ان تغزو بريطانيا سورية وفلسطين.

---

(٢٤) كدوري، **المتاهة الانكليزية ـ العربية**، الصفحتان ١١٩ ـ ٢٢٠.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ١٢١.

(٢٦) كيو، مكتب السجل العام. أوراق كيتشنر. ٥٧/٣٠ ٤٨. الوثيقة ر.ن. ٨.

إعطاء وعود إلى الحلفاء الأوروبيين

(١)

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ رفع سايكس تقريراً إلى حكومته قال فيه إن الفاروقي أبلغه في القاهرة ان قيام مصر البريطانية بغزو فلسطين وسورية سيطلق شرارة ثورة ينحاز فيها الجنود العرب والولايات العربية في الامبراطورية العثمانية إلى جانب الحلفاء. وكانت المشكلة هي حاجة بريطانيا إلى إذن من فرنسا بتحويل قوات من الجبهة الغربية لشن هذا الهجوم. وقال سايكس لأعضاء مجلس الوزراء البريطاني ان عليهم ان يسعوا للحصول على هذا الإذن من فرنسا فوراً. (كانت فرنسا تعارض السماح بنقل أية موارد من أوروبا، ولم تكن معارضتها بغير سبب. ففي مطلع عام ١٩١٦ هاجمت المانيا فردان في معركة أصبحت مع حلول عام ١٩١٨ أكبر المعارك في تاريخ العالم. فقد أدت المعركة إلى سقوط سبعمئة ألف رجل من الجانبين قتلى، أو جرحى، أو مختنقين بالغاز أو أسرى في فردان عام ١٩١٦، وبلغ العدد في معركة السوم ١,٢٠٠,٠٠٠ رجل. ولذلك لم تكن سنة ١٩١٦ سنة يسهل فيها على الحلفاء إرسال قوة بشرية إلى مكان آخر).

أثار سايكس، في الوقت نفسه، مسألة ذات صلة: فقد كان الشريف حسين متردداً في ان يتحول إلى جانب الحلفاء (حسب كلام سايكس) خوفاً من أطماع فرنسا في العالم العربي. وقال ان الحل هو في مفاوضات مع فرنسا هدفها تبديد هذا الخوف. فإذا لم تحل هذه المشاكل مع فرنسا سريعاً ـ قال سايكس محذراً ـ هنالك امكانية ان يعزل الأتراك الشريف حسين، وان يقتلوه، وبالتالي فإن الأحداث التي ستقع في الأراضي المقدسة قد تشعل نار حرب مقدسة حقيقية[1].

الرأي الراديكالي الجديد الذي عاد به سايكس من الشرق الأوسط هو ان العرب، من حيث كسب

---

(١) روجر ادلسون، **مارك سايكس: لوحة هاوٍ**، (لندن. جوناثان كيب، ١٩٧٥)، الصفحتان ١٩٦ ـ ١٩٧.

الحرب، أهم من فرنسا[٢]. لقد كانت فرنسا دولة صناعية عصرية جنّدت ثمانية ملايين رجل للقتال في الحرب، بينما الحسين بلا موارد صناعية أو مالية أو عسكرية أو قوى بشرية. ولم يعرض سوى امكانية غير مؤكدة لتقويض الولاء للامبراطورية العثمانية. وإذا نظرنا إلى الماضي نجد ان الرأي الجديد الذي عاد به سايكس غير متوازن، ومع ذلك حاولت حكومته اقناع فرنسا بتقديم التنازلات التي اعتقد سايكس انها ضرورية.

وحقيقة الأمر ان الحكومة البريطانية كانت قد شرعت في محادثات مع فرنسا. فلم يكن باستطاعة بريطانيا اعطاء الأمير حسين وعوداً بشأن سورية من دون إذن من فرنسا، لأن وزير الخارجية البريطاني كان يعترف باهتمام فرنسا الخاص بتلك المنطقة. علاوة على ذلك كان الفاروقي قد أقنع اللورد كيتشنر وأتباعه بوجوب التجاوب مع مطالب الحسين في سورية، على أقل تقدير إلى حد ما. ولما كانت وزارة الخارجية قد فوّضت مكماهون باعطاء تعهدات إلى الشريف حسين في ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥، فقد طلبت فوراً إلى الحكومة الفرنسية ان ترسل مندوباً عنها إلى لندن للتفاوض بشأن مستقبل حدود سورية لمعرفة مدى حرية بريطانيا في التعامل مع الحسين. وهكذا لم تكن مراسلات مكماهون هي وحدها التي نتجت عن خدعة الملازم الفاروقي، بل كان من بين هذه النتائج أيضاً - ومن الناتج الأهم - المفاوضات التي أجرتها بريطانيا مع فرنسا وروسيا وفي ما بعد مع ايطاليا، والتي أدت في نهاية الأمر إلى اتفاقية سايكس - بيكو - سازانوف والتفاهمات التعاهدية السرية اللاحقة بين الحلفاء.

(٢)

جاء المندوب الفرنسي، فرانسوا جورج بيكو، إلى لندن وبدأت المفاوضات في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥، وكان يرأس الفريق البريطاني المفاوض أول الأمر سير ارثور نيكولسون، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية، وكان هذا الفريق يضم ممثلين لوزارات الخارجية وشؤون الهند والحربية من كبار موظفيها. ولدى عودة سايكس إلى لندن في كانون الأول (ديسمبر) كانت المفاوضات قد وصلت إلى طريق مسدود. وفي أواخر ذلك الشهر انتدبت الحكومة البريطانية سايكس - رجل كيتشنر - ليحل محل نيكولسون على رأس الفريق لكسر الجمود في المفاوضات. وفي الواقع عهدت وزارة الخارجية بالمسؤولية إلى اللورد كيتشنر.

كان سايكس يملك بعض المؤهلات للقيام بهذه المهمة،ويرغب رغبة شديدة في ان ينجح في التوصل إلى اتفاق مع الجانب الآخر. كان يميل إلى فرنسا. وبفضل سنواته الأولى التي أمضاها في المدارس خارج انكلترا كان يتكلم الفرنسية - مع انه ليس واضحاً مدى اتقانه لها. وبما انه كان كاثوليكياً فلم يكن متحاملاً على هدف فرنسا تنشيط وتشجيع المصالح الكاثوليكية في لبنان. وسبق له ان عاش وتجول في الشرق والتقى البريطانيين هناك، مسؤولين عسكريين أو موظفين مدنيين، وتعرف إلى وجهات نظرهم.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٩.

ومن ناحية أخرى لم يكن مضى سوى أقل من عام على توليه منصباً عسكرياً حكومياً، وكانت تلك أول مهمة دبلوماسية تسند إليه. ولم تكن لديه خبرة في التفاوض مع حكومة أجنبية، وكان موقفه التفاوضي ضعيفاً، إذ كان واضحاً جداً انه يريد ان يحصل من الجانب الآخر على أكثر مما يمكن الحصول عليه.

وحتى ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ كان سايكس يذهب إلى السفارة الفرنسية يومياً للتفاوض، وعند حلول المساء يقدم تقريراً مفصلاً إلى فيتز جيرالد وظل يتلقى عن طريقه توجيهات كيتشنر[٣] الذي لا يراه. ويستحيل ان نعرف ماذا كان يقول سايكس أو ماذا كان يقال له: ذلك ان كيتشنر وفيتز جيرالد لم يكونا يحتفظان بأضابير مرتبة، ولم يترك أحد من هؤلاء الرجال الثلاثة سجلاً بما كان يحدث. ولعله كان بينهم سوء تفاهم بشأن ما كان مطلوباً من سايكس ان يطالب به وما كان مطلوباً منه ان يتنازل عنه. وقد ذكر مارك سايكس في وقت لاحق، في معرض وصفه لطريقة تعامله مع اللورد كيتشنر «لم أستطع قط ان أجعل نفسي مفهوماً، ولم أستطع اطلاقاً ان أفهم ما يدور في ذهنه، ولم يستطع هو قط ان يفهم ما يدور في ذهني»[٤].

إن الأدلة على حقيقة الآمال والخطط السرية التي لها علاقة بالمفاوضات متوافرة من الجانب الفرنسي في المفاوضات أكثر من توافرها من الجانب البريطاني. وتوجد وثائق تثبت ما الذي كان بيكو وزملاؤه السياسيون يأملون في كسبه من المفاوضات وكيف كانوا يأملون في تحقيق أهدافهم.

إن بيكو سليل أسرة فرنسية مؤمنة بالاستعمار ـ لقد كان والده مؤسس لجنة افريقيا الفرنسية، وكان أخوه أمين صندوق لجنة آسيا الفرنسية التي كان أبوه عضواً فيها أيضاً ـ وقد عمل بيكو بصورة فعالة كمنافح عن أنصار الاستعمار في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان خير من يمكن ان تختاره حكومته لتمثيلها من بين دعاة العمل من أجل سورية فرنسية[٥]. وفي وقت سابق من عام ١٩١٥ كان بيكو مصدر الالهام لحملة برلمانية في باريس معادية للوزراء الذين أبدوا استعداداً لإخلاء الطريق أمام بريطانيا في الشرق الأوسط. وقد قام البرهان على ان مزيجاً من المصالح التجارية والكنسية والسياسية الفرنسية المؤيدة لموقف بيكو كان ذا أثر فعال. وأرسلت غرفتا التجارة في مدينتي ليون ومرسيليا إلى وزارة الخارجية الفرنسية قرارات تأييد لسورية

---

(٣) جوكا نيفاكيفي، «اللورد كيتشنر وتقسيم الامبراطورية العثمانية ١٩١٥ ـ ١٩١٦»، في كتاب: ك. بورن ود. واط، **دراسات في التاريخ الدولي** (لندن: لونغمان، ١٩٦٧)، ص ٣٢٨، وفيليب ماغنوس، **كيتشنر: لوحة امبريالي** (هارموند سوورث: بنغوين، ١٩٦٨)، الصفحتان ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٤) اوكسفورد، كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط اوراق مارك سايكس. د. س. ٤٢/ ١.

(٥) كريستوفر م. اندرو وا.س. كانيا، فورستنر، **ذروة التوسع الامبراطوري الفرنسي ١٩١٤ ـ ١٩٢٤** (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ١٩٨١)، ص ٦٦.

فرنسية. وصارت لدعاة سورية فرنسية السيطرة على لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب[٦].

في عام ١٩١٥ أعدّ بيير ـ ايتان فلاندان، زعيم «حركة سورية فرنسية» في مجلس الشيوخ الفرنسي تقريراً أصبح بيان عمل للجماعة المسماة «الحزب السوري» في السياسة الفرنسية ـ وهو الحزب الذي كان نصيره الأول بيكو. وكانت حجته ان سورية وفلسطين تشكلان بلداً واحداً أخذ شكله بفضل فرنسا وعلى مدى قرون، إلى حد ان هذا البلد أصبح يشكل «فرنسا الشرق الأدنى». (كانت حجته هذه صدى لماضٍ يعود إلى نحو الف سنة، إلى أيام الصليبيين وإقامة ممالك الصليبيين اللاتين في سورية وفلسطين). ولذلك كتب قائلاً: يتحتم على فرنسا ان تواصل «مهمتها التاريخية» هناك. وقال ان ثروة هذا البلد هائلة، وهذا يعني ان امتلاكها من قبل الامبراطورية الفرنسية أمر حيوي لأسباب تجارية إلى جانب الأسباب التاريخية والجغرافية. ثم ان هذا البلد، حسب قول فلاندان، حيوي أيضاً لفرنسا لأسباب استراتيجية. ومن وجهة نظر موازية لوجهة نظر كيتشنر بشأن مكة والخلافة، ادعى فلاندان ان دمشق ثالث أقدس مدن الاسلام ومركز محتمل للاسلام العرب، ولا تجرؤ فرنسا على السماح بأن تتولى دولة أخرى ادارة هذا البلد وربما استخدامه ضد فرنسا[٧]. وادعى فلاندان ان سورية ـ فلسطين فرنسية الهوى فعلاً، وان سكانها، في زعمه وزعم زملائه، مجمعون في رغبتهم في ان تحكمهم فرنسا.

لقد خدع الفرنسيون أنفسهم. فمعارضة الحكم الفرنسي كانت شديدة في أوساط الطبقات المثقفة في سورية (ما عدا الموارنة، الذين كانت ترعاهم فرنسا). وكان سايكس وأصدقاؤه في القاهرة يعتقدون ان الفرنسيين يتعامون عن الحقيقة عندما يتجاهلون هذه المعارضة. (بيد ان كلايتون وزملاءه تعاموا، بالطريقة نفسها، عن حقيقة انهم يخدعون أنفسهم إذ يظنون ان شعوب تلك المنطقة شديدة الرغبة في ان تحكمها بريطانيا).

لقد أعد بيكو مسودة تعليماته التفاوضية التي تبين الخطوط العامة لاستراتيجية هدفها الحصول على التنازلات التي يريد الحصول عليها من بريطانيا. وتشير هذه التعليمات إلى انه كان يفضل الابقاء على الامبراطورية العثمانية على حالها دون تجزئتها، لأن «هزالها» يوفر لفرنسا «مجالاً غير محدود» لمد نفوذها الاقتصادي[٨]. أما وقد أصبح تقسيمها أمراً لا مفر منه، فمن المرغوب فيه ان تسيطر فرنسا على سورية وفلسطين ولو ان في ذلك تفتيتاً للامبراطورية العثمانية.

كانت وزارة الخارجية الفرنسية تقر بأن حفظ الأمن في داخل سورية سيرهق موارد فرنسا. وكان

---

(٦) المرجع نفسه، ص ٧٥.

(٧) المرجع نفسه، الصفحات ٧٥ ـ ٧٧. كلية سانت انطوني مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. ر ٥٨٨ / ٢٥. اقتباس عن «ريفو ابدومادير»، اتيان فلاندان «حقوقنا في سورية وفلسطين».

(٨) اندرو وكانيا فورستنر، **التوسع الامبراطوري الفرنسي**، ص ٨٩.

أكثر ما يرغب فيه بيكو وحكومته ان يؤكدا الحكم الفرنسي المباشر على ساحل البلاد على البحر الأبيض المتوسط وعلى «لبنان كبير»، ومن ثم الاشراف على بقية سورية اشرافاً غير مباشر عن طريق حكام عرب يأتمرون بأمرها. وكانت خطة بيكو ان يتظاهر أمام سايكس بأن فرنسا تصر على ان تحكم سورية كلها حكماً مباشراً، حتى إذا ما خفف من مطالبه حصل بالمقابل على تنازل ما. إن ما كان يأمل في الحصول عليه هو ان يمد منطقة النفوذ الفرنسي من سورية شرقاً إلى الموصل (وهي الآن جزء من العراق).

وعندما كان بيكو يخطط سراً لكي يأخذ الموصل، لم يكن يعرف ان كيتشنر وسايكس كانا يخططان سراً لإعطائه إياها. فقد كانا يريدان ان يمتد نطاق النفوذ الفرنسي من ساحل البحر الأبيض المتـوسط في الغرب طول الطريق إلى الشرق بحيث يوازي ويحاذي المناطق الخاضعة لسيطرة روسيا، فتوفر المنطقة الفرنسية درعاً تحمي بريطانيا من روسيا. كانت الغاية ان تتوازن فرنسا وروسيا بحيث يكون الشرق الأوسط الفرنسي، مثل سور الصين العظيم، حماية للشرق الأوسط البريطاني من هجمات يقوم بها «البرابرة» الروس من الشمال. كانت هذه الفكرة قد وردت في مناقشات لجنة روبونسن. وسبق ان عرض هذا الاقتراح على كيتشنر، ربما من قبل ستورز، وأصبح في قلب خطته الاستراتيجية للشرق بعد الحرب. بل ان مطالبة بريطانيا بالموصل، بعد الاشتباه الشديد بوجود ثروات نفطية في منطقتها، كان سيضحى بها من أجل وضع الفرنسيين على الخط الأمامي، في موضع قد يهاجمه الروس يوماً ما. وكانت وجهة نظر وزارة الحربية «ان مبدأ دق اسفين مؤلف من منطقة فرنسية، بين اية منطقة بريطانية والقوقاز الروسي، يبدو من كل الوجوه أمراً مرغوباً فيه من وجهة نظر عسكرية»(٩).

في الجانب البريطاني في المفاوضات، كان سايكس ينشد موافقة فرنسا على شن هجوم مصري. فقـد كان كيتشنر يريد اسكندرون ويريد موافقة فرنسا على ان تغزو بريطانيا الامبراطورية العثمانية من اسكندرون. وكان التوجيه الذي تلقاه سايكس من القاهرة يقضي بأن يحتفظ بالمدن السورية التي أعطيت وعود بشأنها إلى الشريف حسين. وما من أحد في الحكومة البريطانية كان راغبـاً في أن يرى قوة عظمى أخرى تثبت قدميها على جانبي طريق الهند. إنه جدول أعمال ينطوي على تحد، وخصوصاً بالنسبة لسايكس، حديث العهد بالدبلوماسية.

كان البريطانيون يخشون ألّا يتساهل بيكو في موضوع مطالبة فرنسا بأن تحكم سورية كلها حكماً مباشراً، أما الفرنسيون فكانوا يخشون عدم السماح لهم بأن يحكموا أي جزء منها، حتى لبنـان الساحلي. كانت حجة بيكو ان لبنان المسيحي لن يطيق حكم أمير مكة، ولو كان حكماً اسمياً، في حين ان بول كامبون، السفير الفرنسي في لندن، قال محذراً ان الحكم الفرنسي ضروري تفادياً لنشوب حرب دينية. فقد قال «يكفي ان نعرف شدة المنافسات بين الديانات والمذاهب في

(٩) ماريان كنت، **النفط والامبراطورية: السياسة البريطانية ونفط بلاد الرافدين ١٩٠٠ ـ ١٩٢٠** (لندن: وبيزينغستوك: مطبعة مكميلان من أجل مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية، ١٩٧٦)، ص ١٢٢.

الشرق لنقـدّر مسبقاً مدى عنف النزاع الداخلي الذي سيحدث في لبنان بمجرد غياب سلطة خارجية تقوم بقمعه»[١٠].

في نهاية الأمر حصل كل من سايكس وبيكو على ما كان الواحد منهما يريد الحصول عليه من الآخـر: تحكم فرنسا لبناناً أكبر وتمارس نفوذاً حصرياً في بقية سورية. لقد نجح سايكس في اعطاء، ونجح بيكو في الحصول على، منطقة نفوذ فرنسية تمتد إلى الموصل. أما ولايتا البصرة وبغداد في بلاد الرافدين فهما من نصيب بريطانيا.

وكانت فلسطين العقبة الكأداء. فقد أرادها سايكس ان تكون من نصيب بريطانيا، ولو ان اللورد كيتشنر لم يكن راغباً فيها، في حين كان بيكو مصمماً على ان تكون من نصيب فرنسا. وقد توصلا آخر الأمر إلى حل وسط: تأخذ بريطانيا مرفأي عكا وحيفا (بدلاً من اسكندرون في شمال سورية، التي كان كيتشنر يفضلها) وتأخذ معهما حزاماً من الأرض تنشيء فوقه خطاً حديدياً يمتد من عكا وحيفا إلى بلاد الرافدين، أما بقية فلسطين فتخضع لنوع من الادارة الدولية.

وباستثناء فلسطين والمناطق التي تمارس فيها فرنسا أو بريطانيا حكماً مباشراً، كان مخططاً للشرق الأوسط ان يؤلف دولة عربية أو اتحاداً كونفدرالياً لدول عربية مستقلة اسمياً ولكنها في الواقع مقسمة إلى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية.

كان وضع اتفاقية سايكس ـ بيكو موضع التنفيذ مرهوناً بإعلان الثورة العربية. ولم تكن لدى بيكو والسفير الفرنسي كامبون قناعة بأن الحسين سيسهم بأي شيء ذي قيمة في قضية الحلفاء. ولذلك طلبا إلى وزير خارجية فرنسا الإسراع ما أمكن في ابرام الاتفاقية الأولية بين سايكس وبيكـو (المعقودة في ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦) قبل ان تتهيأ فرصة اصابة البريطانيين بخيبة الأمل في العرب، فيندموا على التنازلات الواسعة التي قدموها إلى فرنسا لكي يملكوا حرية التعامل مع الحسين[١١].

(٣)

اعتقـد سير مارك سايكس انه كسب للعرب ما طلبه الحسين والفاروقي. كان وصف سايكس للعرب انهم قوم يريدون الاعتراف بوحدتهم الجوهرية، ولكن فقط كمثل أعلى. أما من الناحية العملية فإن هذه الوحدة لن تنسجم مع سجيتهم القومية، ولن تكون قابلة للتطبيق من الناحيتين المالية والادارية. ومما قال في اجتماع لمجلس الوزراء الحربي ان العرب «ليست لديهم الروح القومية بالمعنى الذي نفهمه، ولكن لديهم شعور بالكبرياء العرقية، وهو لا يقل جودة عن الروح

---

(١٠) اندرو وكانيا ـ فورستنر، **التوسع الامبراطوري الفرنسي**، ص ٩٣.

(١١) المرجع نفسه، ص ٩٦.

القومية»[١٢]. وقال إنهم سيكتفون «باتحاد كونفدرالي لدول عربية وبرعاية أمير عربي»[١٣]. لقد عجز سايكس عن إدراك ان الحسين والجمعيات السرية كانوا يطلبون دولة عربية موحدة، دولة مستقلة استقلالاً تاماً وليس محمية أوروبية.

وأساء سايكس أيضاً فهم اصدقائه وزملائه البريطانيين في القاهرة. تحت قشرته الدنيوية كان سايكس بريئاً: فقد اعتقد ان الناس يقصدون ما يقولون. وكان كلايتون قد قال له مباشرة وعن طريق أوبري هيربرت ان من الأهمية بمكان ان يعد بأن تكون دمشق وحلب وحمص وحماة ضمن الاتحاد الكونفدرالي العربي المستقل وعلى رأسه الشريف حسين. ولهذا السبب طلب سايكس من بيكو الموافقة على ذلك (وتخيل انه كسب موافقة بيكو غير عارف ان بيكو أراد ان يعطيها له). فقد قضت اتفاقية سايكس ـ بيكو بأن تستثنى المدن الأربع من الحكم الفرنسي المباشر وان تكون بدلاً من ذلك في نطاق منظور دولة عربية مستقلة ـ ولكن، بطبيعة الحال، خاضعة للنفوذ الفرنسي حصراً. وبدا لسايكس انه صاغ الالتزامات لفرنسا والعرب بما يحقق التوافق بين هذه وتلك، وانه حصل بالضبط على التنازل الذي طلب إليه أصدقاؤه في القاهرة ان ينتزعه من فرنسا.

لقد كان تركيز سايكس على تلبية ما أبلغته القاهرة انه يمثل مطالب الشريف حسين، ولم يبصر ان القاهرة كانت تسعى من وراء ذلك إلى تحقيق مطالبها الخاصة. والأمر الذي لم يفهمه سايكس هو ان كلايتون وستورز بقولهما انهما يريدان داخل سورية للعرب، إنما كانا في الواقع يقصدان انهما يريدانه لبريطانيا، بل لهما بصفتهما ممثلَيْ بريطانيا في المنطقة، من وراء ستار عربي. وعندما قالا إنهما يريدان الداخل السوري مستقلاً فقد قصدا انهما يريدان ان تكون إدارته لبريطانيا لا لفرنسا.

ولم يخطر لسايكس ان ممتلكات الحسين السورية ستكون أقل استقلالاً إذا ما كان مستشاروها فرنسيين لا بريطانيين. أما في القاهرة فقد كانوا يرون بوناً شاسعاً بين ادارة بريطانية وادارة فرنسية. ولم يكن هذا بلا سبب البتة. إذ كان اعتقاد كلايتون وزملائه ان الادارة الاستعمارية الفرنسية لن تتيح للبلاد الاحتفاظ بطابعها. إن ما سماه الفرنسيون «مهمتهم التمدينية» كان ينظر إليه من قبل البريطانيين على انه عملية ضم. وغالباً ما كانت هذه العملية تبدو وكأنها تشتمل على فرض اللغة والثقافة الفرنسيتين على مجتمع البلد. أما البريطانيون، في مصر وغيرها، فقد نأوا بأنفسهم عن أهل البلاد وسكنوا في نواديهم ومجتمعاتهم، وباستثناء إشرافهم على إدارة الحكومة، تركوا البلاد وشعبها وشأنهما. وكان هذا في نظر كلايتون وزملائه أقصى ما يمكن ان يطمح إليه العرب من استقلال. ولقد قال أحد زملاء كلايتون لطلاب كلية الأركان العسكرية البريطانية بعد ذلك بسنوات، ان المثقفين العرب يعتبرون الحكم

---

(١٢) اوكسفورد، كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس د.س. ٤٢/١.

(١٣) ادلسون، **سايكس**، ص ٢٠٠.

البريطاني «البديل الوحيد المحترم» للحكم العثماني[١٤].

عندما ساوى كلايتون وزملاؤه الوجود الفرنسي بالضم، والوجود البريطاني بالاستقلال، كانوا ينظرون إلى اتفاقية سايكس ـ بيكو (ولو انهم لم يقولوا ذلك لسايكس) باعتبارها خيانة للتعهد بمنح الاتحاد الكونفدرالي العربي المقترح الاستقلال. لقد كان طموح اتباع كيتشنر ان يحكموا سورية بأنفسهم، وكان اعتقادهم ان سايكس قد خذلهم. لكنهم لم يفصحوا عن رأيهم على هذا النحو، بل قالوا ان سايكس قد خذل العرب (وكأن العرب وليس هم الذين رغبوا في ان تتولى بريطانيا حكم سورية).

ومهما كان الأمر يعني لهما سياسياً، بل ربما شخصياً، فقد كان رأي كلايتون وستورز ان سايكس قد أغلق الطريق أمام امكانية انشاء امبراطورية مصرية جديدة. ولما كانت سيملا قد أكّدت مطالبتها بولايتي بلاد الرافدين المجاورتين، صار في حكم المؤكد ان تخضع ولايتا بغداد والبصرة ـ وهما تشكلان المنطقة البريطانية الرئيسة في اتفاقية سايكس ـ بيكو ـ لحكم خصمهما، أي حكومة الهند، بينما تم التنازل لفرنسا عن سورية التي كان بالإمكان ان تقع في نطاق نفوذ القاهرة. وهكذا فإن الاتفاقية أتاحت للقاهرة والخرطوم التوسع فقط في شبه الجزيرة العربية القاحلة. ولما كان كيتشنر يستطيع بعد انتهاء الحرب ان يذهب إلى الهند نائباً للملك، فإن كلايتون وستورز، وكلاهما مستعرب ومرتبط عاطفياً ومهنياً، بمصير مقر المعتمد البريطاني في القاهرة، فقد أصابهما الأسى بسبب ما فعله سايكس.

ولم يفهم سايكس اطلاقاً ان أصدقاءه في القاهرة كانوا ينظرون إلى الأمر على هذا النحو، لأنه ظن انه فعل ما طلبوه. لقد اعتقد انه كسب داخل سورية للعرب، ولم يدرك ان أصدقاءه في القاهرة اعتقدوا انه قد خسره. ولم يخطر له مطلقاً ان القاهرة ستحاول تقويض اتفاقية سايكس ـ بيكو. لقد كان فخوراً بالاتفاقية، ومن بواعث التهكم ان المكتب العربي ـ الذي كان هو قد أنشأه أصبح مركز المؤامرة للقضاء على الاتفاقية.

كان صديقه القديم اوبري هيربرت يعمل في المكتب العربي في القاهرة، ولذلك كان يعلم (اما سايكس فلم يعلم) ان كلايتون يعتقد اعتقاداً شديداً ان اتفاقية سايكس ـ بيكو قضت قضاء مبرماً على سياسة القاهرة تجاه العرب. فقد ألقى هيربرت باللوم على بيكو، فكتب يقول:

«أخشى ان ذلك الخنزير مسيو بيكو قد خذل مارك سايكس خذلاناً شديداً. لقد عبرت له عن ظني بأن ذلك سيحدث. اني أتحسر لحدوث هذا الشيء وأتحسر على مارك وأتحسر أيضاً على قدامى الفيكتوريين الأوائل الذين كان بإمكانهم ان يقولوا (لقد حذرناكم، وهذه عاقبة الاستهانة

---

(١٤) اوكسفورد، كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط، أوراق هيوبرت يونغ. ملاحظات لالقاء محاضرة في كلية اركان الحرب.

بأبجدية الدبلوماسية وترك الأمور في أيدي هواة عند الاقدام على مفاوضات دقيقة وهامة)»[١٥].

(٤)

وافق مجلسا الوزراء البريطاني والفرنسي على اتفاقية سايكس ـ بيكو في بداية شباط (فبراير) ١٩١٦. ولكن أحكامها بل ووجودها أحطيت بالسرية. ولم يكشف عن حقيقة توصل الحلفاء إلى اتفاقية بشأن الشرق الأوسط بعد الحرب إلّا بعد نحو سنتين. وبعض القلة من المسؤولين في لندن الذين كانوا على علم بالاتفاقية، قد أعربوا عن تحفظات إزاءها. وكانت الشكوى البريطانية العامة هي ان الاتفاقية أعطت لفرنسا أكثر مما يجب ان تعطيها.

وبالنسبة لسايكس، فإن بعض مبرر إعطاء فرنسا ما حصلت عليه قد تم القضاء عليه سريعاً. لقد أراد سايكس ان يربح موافقة فرنسا على اقتراح القاهرة غزو سورية وبالتالي اطلاق شرارة الثورة العربية التي وعد الفاروقي بإشعالها. ولكن رئيس الوزراء البريطاني، الذي أخذ برأي الجنرالات الذين أصروا على تركيز كل القوات على الجبهة الغربية في أوروبا، قضى بعدم القيام بحملة جديدة في الشرق الأوسط بسبب ما ستنطوي عليه من تحويل للموارد.

وقد ألقى سايكس المحتدم غيظاً خطاباً في مجلس العموم شجب فيه زعامة اسكويث، وطالب بإنشاء لجنة تضم أربعة من أعضاء مجلس الوزراء لإدارة شؤون الحرب. وبما ان خطاب سايكس جاء في وقت كان فيه رئيس الوزراء يتعثر في قيادة الحكومة، فقد اجتذب الخطاب تأييد الرأي العام على نطاق واسع. وأدى الخطاب أيضاً إلى لقاءين كانت لهما أهمية في تسلق سايكس السلم السياسي: أحدهما مع لويد جورج والآخر مع الحاكم السابق لجنوب افريقيا، اللورد ميلنر، وبطانته صاحبة النفوذ، ومن ضمنها جوفري روبنسون، رئيس تحرير جريدة «التايمز».

وبالرغم من فشل سايكس في كسب الموافقة على غزو سورية فقد كان يعتقد بأهمية التوصل إلى ترتيبات مع فرنسا على الأساس المتفق عليه. لقد حققت اتفاقية سايكس ـ بيكو على أقل تقدير ما أراد كيتشنر تحقيقه: أي احتواء روسيا في الشرق الأوسط بعد الحرب. علاوة على ذلك، بدا ان سايكس كان يعتقد ان حل الخلافات بين الحلفاء وتوصلهم إلى اتفاقية محددة هو في حد ذاته أمر حسن. ولما كان ابرام الاتفاقية من قبل روسيا مطلوباً، كانت مهمة سايكس الفورية هي الانضمام إلى بيكو ـ الذي سبقه إلى بيتروغراد ـ لمساعدته في تأمين موافقة روسيا على الاتفاقية.

(٥)

كانت ثمة هفوة غريبة في الاتفاقية التي حملها سايكس وبيكو إلى بيتروغراد. ففي ما يتعلق بفلسطين أخذت هذه الوثيقة بالحسبان مصالح فرنسا وبريطانيا والحلفاء الآخرين والزعيم العربي المسلم الشريف حسين أمير مكة، دون ان تشير بأي شكل إلى مصالح شعب الأرض

(١٥) مارغريت فيتزهيربرت، **الرجل الذي كان العباءة الخضراء: سيرة حياة اوبري هيربرت** (لندن: جون مري، ١٩٨٣)، ص ١٧٣.

التوراتية المقدسة ـ أي اليهود. غير ان الصهيونية السياسية ـ وهي الحركة اليهودية المنظمة الرامية إلى عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين ـ كانت قوة ناشطة في العالم منذ عقدين أو ثلاثة عقود. وكانت اعادة توطين اليهود في فلسطين جارية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وما ان حلّ عام ١٩١٦ حتى كان في فلسطين عدد كبير من السكان اليهود يعيشون فيها ويعملون.

قبل ذهاب سايكس إلى روسيا لفتت انتباهه ملاحظة في هذا الصدد أبداها الكابتن وليم ريجينالدهول، رئيس مخابرات الاميرالية، فقد اعترض هول على الاغراءات التي كانت تعرض على العرب بقيادة الشريف حسين، إذ كان رأيه انه يجب على بريطانيا أولاً ان تنزل قوات في فلسطين وعندها فقط ينضم العرب إلى الحلفاء. وادعى هول ان «القوة هي خير دعاية عربية»، وادعى أيضاً ان الوعود التي تقدم للعرب قد تلقى معارضة من اليهود الذين «لهم مصلحة مادية قوية، ومصلحة سياسية قوية جداً، في مستقبل هذا البلد»(١٦). لقد ذهل سايكس عند ذكر اليهود، إذ لم يكن لهم شأن في حساباته حتى ذلك الحين. ولذلك اتصل سايكس قبل سفره إلى روسيا بوزير الداخلية هيربرت صاموئيل، وهو يهودي، آملاً ان يعرف منه شيئاً عن الصهيونية.

لا بد ان نتذكر ان سايكس وبيكو تمكنا في مفاوضاتهما من تسوية خلافاتهما بشأن فلسطين عن طريق الموافقة على وضع معظمها تحت نظام دولي يتقرر شكله النهائي بعد التشاور مع الحلفاء الآخرين المعنيين بالأمر ـ روسيا وايطاليا ـ ومع الشريف حسين. بيد ان كلام الكابتن هول أثار في نفس سايكس القلق من ان يكون الحل الوسط الذي توصل إليه مع بيكو قد أهمل عاملاً رئيساً: فهما لم يأخذا بعين الاعتبار احتمال اهتمام اليهود بمستقبل فلسطين السياسي.

ومن الجلي ان سايكس خاف عندما لفت انتباه بيكو إلى هذا السهو، ان يظن زميله الفرنسي انه إنما فعل ذلك من أجل التراجع عن الاتفاقية. ولذلك بذل عند وصوله إلى بتروغراد جهداً مضنياً لإثبات حسن نيته. إن صفاء طويته حال دون معرفته ـ أو حتى شكه ـ في ان الحكومة الفرنسية كانت تعمل من وراء ظهره للانقلاب على الحل الوسط الذي كانا قد اتفقا عليه بشأن فلسطين. ذلك ان رئيس وزراء فرنسا، أريستيد بريان، كان قد شرع في مفاوضات سرية مع الروس، وتوصل الجانب الفرنسي في ٢٥ آذار (مارس) ١٩١٦ إلى اتفاق مع روسيا على ان النظام الدولي المقترح لفلسطين ـ وهو الترتيب المتفق عليه بين سايكس وبيكو ـ سيكون نظاماً غير عملي ويجب ان يقوم بدلاً منه نظام فرنسي. وقد جرى تبادل سري للمذكرات بين فرنسا وروسيا في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩١٦ تضمن اتفاقية بين الحكومتين بشأن منطقة نفوذ كل منهما في الأراضي العثمانية، وتضمن أيضاً تعهداً روسياً لفرنسا بأن تؤيد روسيا في المفاوضات مع الحكومة البريطانية أهداف حكومة الجمهورية الفرنسية في فلسطين»(١٧).

---

(١٦) ادلسون، **سايكس**، الصفحة ٢٠٢ وما يليها.

(١٧) اندرو وكانيا ـ فورستنر، **التوسع الامبراطوري الفرنسي**، ص ١٠١.

لم يكن الروس يكنون أي تعاطف مع اليهود أو المطالب اليهودية، ولدى وصول سايكس إلى بيتروغراد، أقنعه مضيفوه من رجال القيصر بأن اليهود الصهاينة هم قوة معادية كبيرة في داخل روسيا. ولذلك استحوذت على سايكس القناعة بأن اليهود قوة موجودة في أماكن عديدة وانهم قد يخرّبون قضية الحلفاء. ولكنه خلافاً للروس، رأى القيام بمحاولة لكسبهم. وقد ذكر في تقرير إلى وزارة الخارجية انه قد أبلغ بيكو ان بريطانيا غير مهتمة بالاستيلاء على فلسطين، وهذا ما يريده الصهاينة، فيجب إسترضاؤهم إذا ما أراد الحلفاء ان يربحوا الحرب[18]. وكانت فكرته ان يعرض على الصهاينة تأسيس شركة لشراء الأراضي في فلسطين، وكان السؤال الذي طرحه على وزارة الخارجية هو «هل تكفي شركة لشراء الأراضي؟» ـ وكان الجواب القاطع الذي تلقاه من وزارة الخارجية انه يجب عليه ان يحتفظ بأفكاره لنفسه[19]. (ومن الجلي ان وزارة الخارجية أرادت من سايكس ألّا يحشر نفسه في مسألة كان من الواضح انه لا يفقه فيها شيئاً).

اتخذ سايكس لدى عودته إلى لندن في نيسان (ابريل) ١٩١٦ خطوات جديدة لكي يعرف ما هي الصهيونية. ومرة أخرى قابل هيربرت صاموئيل الذي عرّفه إلى الدكتور موزس غاستر، الحاخام الأكبر للجالية اليهودية السفارادية(*). يقول سايكس: «لقد فتح غاستر عيني على معنى الصهيونية»[20]، عندئذٍ قام سايكس بتعريف غاستر إلى المفاوض الفرنسي جورج بيكو واقترح على بيكو ان تعمل فرنسا وبريطانيا معاً وصيتين على العرب واليهود بدلاً من ان تعمل كل منهما مستقلة عن الأخرى في الشرق الأوسط. لكن بيكو لم يعجب بغاستر ولا باقتراح سايكس بل تشبث بأهدافه الاقليمية.

وفي الوقت الذي بدا فيه نصر الحلفاء الحاسم في أحسن الحالات، أمراً بعيد الاحتمال، أخذ القلق يساور سايكس من امكانية ترجيح القوى اليهودية كفة الالمان والاتراك، وقد حاول ان يقنع بيكو بأنه إذا لم يعرض الحلفاء على اليهود موقعاً في فلسطين، قد تخسر فرنسا الحرب وتخسر معها مدناً ومقاطعات في فرنسا نفسها، وهذه أكثر أهمية للفرنسيين من فلسطين. وأخذ يحث بيكو على ابلاغ حكومته ان انقاذ باريس وفردان واستعادة الألزاس يستحقان تقديم تنازلات في الشرق الأوسط.

وبينما كان سايكس في خضم عملية اكتشاف المسألة الصهيونية ـ قبل رحلته إلى بيتروغراد وخلالها وبعدها ـ كانت وزارة الخارجية في لندن أيضاً تفعل الشيء عينه، بتحريض من جيرالد فيتز موريس، صديق سايكس القديم. إن فيتز موريس زميل سايكس في الدراسة (مدرسة بومون) والذي تبنّى الكثير من وجهات النظر والآراء الجائرة التي تبناها سايكس، كان ـ كما

---

(١٨) س. ج. لاو وم. ل. دوكريل، **سراب السلطة**، المجلد ٢، **السياسة الخارجية البريطانية ١٩١٤ ـ ١٩٢٢** (لندن وبوسطن: روتلدج وكيغان بول، ١٩٧٢)، الصفحتان ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(١٩) المرجع نفسه، ادلسون، **سايكس**، الصفحة ٢٠٢ وما يليها.

(*) السفاراد هم اليهود الذين عاش أجدادهم خلال القرون الوسطى في اسبانيا والبرتغال.

(٢٠) ادلسون، **سايكس**، الصفحة ٢٠٢ وما يليها.

نتـذكر - المصدر الرئيس في الحكومة البريطانية للترهة القائلة ان الباب العالي كان في قبضة اليهود. وفي أثناء عمله في الاميرالية في أوائل عام ١٩١٦ أخذ بالطرح المعاكس: فقد أوصى إلى زميل في وزارة الخارجية - زميل دراسة سابق في مدرسة بومون يدعى هيو اوبين - بأن يقترح انه «إذا أمكننا ان نعرض على اليهود ترتيباً بشأن فلسطين يستهويهم استهواء شديداً، فمن الممكن ان نتمكن من عقد صفقة معهم يسحبون بموجبها تأييدهم لحكومة حزب تركيا الفتاة التي ستؤول عندئذٍ إلى الانهيار»[٢١]. وكما كانت القاهرة تعتقد بوجود جمعيات سرية عربية قوية وغامضة قادرة على الاطاحة بجماعة تركيا الفتاة، كانت لندن تعتقد أيضاً بوجود جمعيات يهودية قوية وغامضة قادرة على ذلك أيضاً.

ومن الجـلي ان اوبين عزم على متابعة الأمر ضمن وزارة الخارجية نفسها، ولكن لم تتح له الفرصة: فقد مات في ربيع عام ١٩١٦. وهكذا ترك الأمر في نهاية الأمر لسايكس لإثارة الموضوع داخل الجهاز البيروقراطي البريطاني، بالرغم من ان معرفته باليهود وشؤونهم كانت ضئيلة.

لقد احتفظ سايكس، شأنه شأن فيتز موريس، باعتقاده الذي لازمه في حداثته، بوجود أسرة يهودية عالمية متماسكة تتحرك بطرق خفية للسيطرة على العالم، ان ادوارد غرانفيل براون، الذي كان أعظم حجة أكاديمي بريطاني في شؤون الشرق الأوسط، وكان استاذ اللغة العربية في جامعة كامبردج، وسبق ان عرف سايكس عندما كان تلميذاً، وكان يثني عليه في أمور أخرى، قد قال في هذا الشأن «ان سايكس يرى اليهود في كل مكان»[٢٢].

(٦)

بيـد ان الصهيونية كانت أبعد ما تكون عن كونها المسألة الرئيسة التي عالجها سايكس في بيتـروغـراد في شتـاء عام ١٩١٦. كانت الخطوط العريضة للتسوية الشرق أوسطية موضع مناقشة، ووجد لدى وصوله ان القادة الروس - مثلهم مثل المسؤولين البريطانيين في لندن - يدّعـون ان الوعود التي قدمت لفرنسا تجاوزت الحد. ورداً على ذلك أوضح السفير الفرنسي موريس باليـولوغ، لوزيـر الخارجية الروسي ان السبب الذي حدا بريطانيا لدفع فرنسا إلى التمـادي في مطالبهـا تجاه الشرق هو توفير حاجز لبريطانيا يحميها من روسيا[٢٣]. وكان هذا صحيحاً تمام الصحة. ولكن وزارة الخارجية في لندن احتدت لفضح موقفها فأغرقت بيتروغراد ببيانات النفي الرسمية. ولكن مسؤولي الوزارة في ما بينهم وصفوا باليولوغ بأنه «حقيقة انسان فاسد»[٢٤].

---

(٢١) رونالد ساندرز، **اسوار القدس العالية: تاريخ اعلان بلفور ونشوء الانتداب البريطاني على فلسطين** (نيويورك: هولت وراينهارت وونستون، ١٩٨٣)، ص ٣٣٤.

(٢٢) ادلسون، **سايكس**، ص ٢٢٦.

(٢٣) كنت، **النفط والامبراطورية**، ص ١٢٣.

(٢٤) المرجع نفسه.

كان سبب اصدار الالتزامات، التي رهنت مستقبل الشرق الأوسط بعد الحرب، من قبل حكومة اسكويث الائتلافية، هو ان القاهرة، وقد جازت عليها خدعة الفاروقي وصدقت تماماً قدرة الجمعيات السرية العربية، أقنعت لندن بأن الشريف حسين قادر على تمزيق الامبراطورية العثمانية. هل كان الأمر يستأهل دفع هذا الثمن؟ كان على بريطانيا ان تنتظر بضعة أسابيع بعد توقيع اتفاقية سايكس ـ بيكو ـ سازانوف لتعرف الجواب.

الفصل الثالث عشر

انتصار تركيا على ضفاف دجلة

(١)

بينما كان المكتب العربي في القاهرة ينتظر آملاً حدوث الثورة العربية التي ستنهي الأمبراطورية العثمانية، وجد نفسه مدعواً لمساعدة الهند البـريـطانية على تصفية مشروع آخر مدمر وغبي في الحرب ضد تركيا: معركة مماثلة لمعركة غاليبولي أضيق نطاقاً ولكنها أشد عاراً لبريطانيا، نشبت عند ضفاف نهر دجلة في بلاد الرافدين[١].

قبل شهر واحد من نشوب الحرب العثمانية في خريف عام ١٩١٤، كانت لندن قد أمرت بارسال قوة من الهند إلى الخليج الفارسي لتكون على أهبة الاستعداد لحماية تموينات النفط التي تأتي إلى بريطانيا من بلاد فارس إذا ما تعرضت للخطر. كان الهدف الأول لهذه القوة في حال وقوع حرب ان تحمي مصفاة النفط في عبدان، وهي جزيرة فارسية في شط العرب، المجرى المائي عند رأس الخليج حيث تلتقي مياه دجلة والفرات. وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، وهو اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا الحرب على تركيا، تقدمت هذه القوة بعد دعمها. وقد سقطت القلعة التـركيـة في الفـاو عنـد مصب شط العرب بعد قصفها مدة قصيرة من قبل الزورق الحربي البريطاني أودين. ولم يمض اسبوعان حتى كان عدة آلاف من الجنود البريطانيين قد احتلوا مدينة البصرة. ومع ان القوة الهندية البريطانية نزلت في بلاد الرافدين، فقد كان نزولها من أجل حماية بلاد فارس المجاورة من وقوع هجوم عليها.

---

(١) الروايـة في هذا النص تترسم خطى رسل برادون، **الحصار** (نيويورك: مطبعة فايكنغ، ١٩٦٩)، وأعمال مرجعية قياسية أخرى. فيما يخص دور اوبري هيربرت يرجى الرجوع إلى كتاب: مارغريت فيتزهيربرت، **الرجل الذي كان العباءة الخضراء: سيرة حياة اوبري هيربرت** (لندن: جون مري، ١٩٨٣)، الصفحة ١٦٩ وما يليها.

كانت المقاومة التركية هزيلة لأن جبهة البصرة كانت تبعد مئات الأميال عن الحشود الرئيسة للقوات العثمانية ومراكز التموين الواقعة قرب بغداد. وعندما كانت القوة الهندية البريطانية تثبت مواقعها في ولاية البصرة كانت تتعامل بسهولة مع الهجمات التركية المضادة.

كان ضابط بريطاني طموح قد عيّن حديثاً قائداً لهذه القوة هو سير جون نيكسون الذي وصل إلى المنطقة في شهر نيسان (ابريل) ١٩١٥. وقد أغراه التراجع التركي بالتقدم داخل مناطق المستنقعات في الجزء الأدنى من بلاد الرافدين. فأرسل أحد ضباطه وهو الجنرال تشارلز فيرفير تاونسند، قائد القوة في الميدان للتقدم أكثر فأكثر شمالاً من أجل تحقيق انتصارات جديدة، دون ان يكون لدى هذا الضابط احساس كبير بالاتجاه أو بالغاية الاستراتيجية. وفي نهاية الأمر أمر نيكسون القوات ـ بالرغم من المآخذ التي أخذها عليه الجنرال تاونسند بأن تواصل زحفها بلا توقف حتى بغداد.

إن زحفاً ناجحاً من البصرة إلى بغداد كان يتطلب معرفة كاملة بالأمور اللوجستية، ووفرة في عدد الجنود، ووسائط نقل نهرية، ومعدات مستشفى، ومدفعية، ومؤناً لم تكن الهند البريطانية قد وفرتها لهذه الحملة. كان الجنود يتقدمون داخل بلد مليء بالمستنقعات والصحارى، خالٍ من الطرق والسكك الحديدية، فكانوا لذلك مضطرين إلى اتباع مجرى نهر دجلة المتعرج والضحل والغدار. كانوا بحاجة إلى عدد كبير من الزوارق النهرية الملائمة لنهر دجلة. وكان البلد موبوءاً بالحشرات ـ فقد كانت هناك أسراب من الذباب والبعوض مزعجة إلى حد الجنون وناقلة للأمراض ـ الأمر الذي كان يتطلب وجود مستشفيات متنقلة ومواد طبية. وكما ان الأتراك في البصرة الذين أضعفهم الهجوم كانوا عند نهاية خط تموينهم الطويل، كانت قوات تاونسند في جبهة بغداد أيضاً عند خط نهاية تموينها الطويل، وستجد نفسها بحاجة إلى كميات كافية من المواد الغذائية والذخائر كان يجب ان تحضرها معها.

وبالرغم من افتقار قوات تاونسند إلى هذه الأمور الضرورية، فإن تاونسند الذي تكاد موهبته للقيادة العسكرية تبلغ حد النبوغ، كان على وشك ان يشق طريقه إلى النصر. ولكن انتصاره النهائي، إذا صح ان نسميه كذلك ـ في موقع كتيسيفون، على بعد خمسة وعشرين ميلاً جنوب شرقي بغداد وعلى بعد مئات الأميال النهرية من قاعدة خطه التمويني في البصرة ـ كان كارثة: إذ انه فقد نصف قوته الصغيرة. وقد بدأ التقهقر ليلة ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر).

لقد علم تاونسند ان الفيلد مارشال كولمان فون ديرغولتز الذي كان يعتبره واحداً من أعظم الاستراتيجيين في عصره، قد تولى القيادة العامة للقوات العثمانية في بلاد الرافدين. وعلم أيضاً ان ٣٠,٠٠٠ جندي تركي كانوا على وشك دعم القوة المؤلفة من ١٣,٠٠٠ جندي التي قاومته في كيتسيفون. بينما انخفض عدد القوة المقاتلة التي يقودها تاونسند إلى ٤٥٠٠ رجل يعانون من نقص في الذخائر والمواد الغذائية.

اعتقد تاونسند ـ ولسبب وجيه ـ ان أقرب مكان آمن يستطيع التوقف فيه والصمود، يقع على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب على مجرى النهر، ولكنه قرر ـ وكان قراراً غير حكيم ـ ان قواته

المنهكة لا تستطيع ان تقطع هذه المسافة. وبعد أسبوع من التقهقر المضني مسافة تبلغ نحو مئة ميل، تخللتها معارك مع مطارديهم الأتراك، وبعد ان منيت قواته بألف اصابة أخرى، اختار تاونسند التوقف والصمود في كوت العمارة.

كوت العمارة قرية بيوتها من الطين داخل منعرج لنهر دجلة، ولذلك فهي محاطة بالماء من ثلاث جهات. وإذ اتخذ تاونسند منها ملجأ وحصّن الجانب الرابع، يكون قد سجن نفسه في موقع شبيه بالقلعة. أي انه صار عسيراً على الأتراك ان يدخلوا المكان وصار عسيراً عليه ان يخرج منه. وكانت الجيوش العثمانية بقيادة فون ديرغولتز قد أبقت في كوت العمارة قوة تكفي لمنع أي خروج بريطاني، ثم تقدمت هذه القوة لتحصن نفسها في موقع إلى الجنوب لصد أية قوة قد ترسلها بريطانيا لانقاذ القوة المحاصرة.

كان تاونسند يخطط لانقاذ قواته ولكنه دمر بنفسه فرص انقاذها. كانت لديه تموينات تكفي حتى نيسان (ابريل) ١٩١٦، لكنه أبرق قائلاً انه يستطيع الصمود فقط حتى كانون الثاني (يناير). ولم يكن بالإمكان تجميع كامل القوة المتوافرة لانقاذه خلال المدة التي حددها ـ كانت ثمة حاجة إلى بضعة أسابيع أخرى ـ ولكن القوات المجزأة المتوافرة بدأت، تحت تأثير برقيات تاونسند المفتقرة إلى الثبات والتوازن، تشن الهجوم تلو الهجوم قبل الأوان فتهزم. ولو كانت هذه القوات المجزأة قد انتظرت حتى تستطيع ان تهاجم كقوة واحدة متكاملة لكان محتملاً ان تشق طريقها.

(٢)

في ٢٦ نيسان (ابريل) كانت حامية كوت العمارة قد استهلكت آخر ما لديها من مواد غذائية، فعرضت وزارة الحربية في لندن على تاونسند خدمات الكابتن اوبري هيربرت والكابتن توماس لورنس في التفاوض على الاستسلام. كان كلاهما على علاقة مع المكتب العربي في القاهرة، ثم ان هيربرت، عضو البرلمان، قد اشتهر بأنه صديق الامبراطورية العثمانية قبل الحرب، وكلاهما وصلا للتو إلى بلاد الرافدين وأصيب لورانس بالحمى المنتشرة في تلك البلاد.

كان قد مضى على بدء حصار كوت العمارة ١٤٦ يوماً، أي ان المدة تجاوزت الرقمين القياسيين السابقين في حصارين شهيرين هما حصار ليدي سميث (في حرب البوير) وحصار بليفنا (في الحرب الروسية ـ التركية عام ١٨٧٧). وقد شهد هذا الحصار قصة من قصص البطولة ـ لأن المدافعين كانوا يتعرضون للمرض والجوع والفيضانات ـ كما شهد أموراً مأساوية، لأن المؤن كانت تلقى إليهم بالمظلات فكانت الريح تقذفها إلى النهر، أما الزوارق النهرية التي أرسلت لمساعدتهم فقد جنحت أو أوقفتها السلاسل التي نصبها الأتراك عبر النهر.

فقد تاونسند توازنه العاطفي لا سيما انه لم يتعاف تماماً من الحمى التي أصابته في الصيف الماضي القائظ. وقد خطر له في وقت ما خلال الحصار ان الأتراك قد يسمحون له ولرجاله بحرية المرور وان يمنحوهم العفو لقاء مليون جنيه. وقد تلقى هيربرت ولورانس اللذان رافقاه من ٢٧

آذار (مارس) إلى ٨ نيسان (ابريل) لمفاوضة الشروط، تفويضاً من لندن بأن يعرضا مبلغاً أكبر: وبالرغم من خجلهما إذ يفعلان ذلك، عرضا على الأتراك مليوني جنيه. غير ان القائد التركي رفض العرض بناء على أوامر تلقاها من أنور باشا الذي كان جلياً انه يستمتع بإذلال بريطانيا وهي تتوسل لابتياع حرية جنودها.

تبعاً لذلك دمر المدافعون البريطانيون في كوت العمارة مدافعهم واستسلموا دون شرط. وقد عومل تاونسند معاملة كريمة وأرسله الأتراك ليعيش في راحة ـ بل ليعيش عيشة بذخ ـ في القسطنطينية. أما جنوده الذين أنهكهم المرض والجوع فقد سيقوا إلى مسيرة موت قطعوا خلالها مئة ميل إلى بغداد وخمسمئة ميل أخرى إلى الأناضول، وهناك أرغموا على العمل في بناء السكك الحديدية وهم مقيدون بالسلاسل. ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى عدد قليل.

لقد منيت قوات تاونسند بأكثر من ١٠,٠٠٠ اصابة منذ بدء زحفها نحو بغداد وحتى استسلامها. ومنيت القوات البريطانية التي جاءت لانقاذها في كوت العمارة بثلاثة وعشرين ألف اصابة، وكانت النتيجة ان الحامية وضعت في الأسر وواجهت الموت طول الطريق.

كانت هذه مذلة قومية أخرى حلّت ببريطانيا على يد عدو عثماني كان المسؤولون البريطانيون يعتبرونه دائماً عديم الفاعلية ـ وكان المكتب العربي يعتزم سحقه بواسطة عمل تخريبي داخلي في وقت لاحق من عام ١٩١٦.

الجزء الرابع

التخريب

الفصل الاول

خلف خطوط العدو

(١)

في عام ١٩١٦ بدا ان السؤال هو: أي من الائتلافين المتحاربين، المانيا وحلفائها أو بريطانيا وحلفائها سينهار أولاً تحت ضغط الجهود الهائلة التي فرضتها الحرب. كانت القاهرة، ولها وجهة نظرها الخاصة، تراهن على ان تركيا هي التي ستتصدع أولاً. ويتبع ذلك السؤال الآخر: هل ستتمكن ثورة الشريف حسين، المقرر حدوثها في أواسط عام ١٩١٦، من تقويض ولاء مئات الألوف من الجنود العثمانيين وملايين الرعايا العثمانيين؟ كان إعتقاد المخابرات البريطانية ان ذلك ليس أمراً غير محتمل، إذ انها كانت دائماً تعتبر نظام حكم السلطان العثماني نظاماً هزيلاً.

وكان الاعتقاد السائد في العالم الغربي، منذ عقود ان الامبراطورية العثمانية المهتزة سوف تنهار أو تتفتت يوماً من الأيام. وبموجب هذا الحساب، فإن أعباء شن الحرب على بريطانيا وفرنسا وروسيا ستؤدي إلى انهيارها وان التخريب في الداخل سيزيد الأعباء شدة.

غير ان سجل الأحداث حتى منتصف عام ١٩١٦ كان يوحي بغير ذلك. فزعماء حزب تركيا الفتاة، باعتبارهم وطنيين يقودون حملة ضد النفوذ الأجنبي ومن أجل إزالة مظاهر الاستعمار، كانت لديهم حساسية إزاء أي وجود أجنبي في وسطهم ـ حتى إزاء وجود حلفائهم. وقد عبّر كل من أنور وطلعت عن قلقهما بشأن تمدد النفوذ الالماني في إدارة المجهود الحربي التركي(*). مع ذلك لم ينشأ خلاف خطير بين الأتراك والالمان.

(*) بعد غاليبولي، استأنف أنور حملته السابقة للحد من النفوذ الألماني. وقد أشار في مطلع عام ١٩١٦ الى أن الجنود الالمان الذين كانوا آنذاك في الامبراطورية العثمانية وعددهم ٥,٥٠٠ ـ حتى هؤلاء عددهم زائد عن الحد ويجب سحبهم. ولكي يظهر أن تركيا في غنى عنهم أصرّ على ارسال سبع فرق عثمانية الى جنوب أوروبا لتقاتل جنباً الى جنب مع جيوش بقية دول أوروبا الوسطى. ولم تنجح جهوده نجاحاً كاملاً، فمع انتهاء الحرب كان ٢٥,٠٠٠ ضابط وجندي الماني يخدمون في الامبراطورية العثمانية.

ومع ان كثيرين من الالمان الذين كانوا يخدمون في القوات العثمانية عبروا عن شعورهم بالاحباط والاشمئزاز بسبب العراقيل التي كانت توضع على طريق تنفيذ أوامرهم، فلم يسمحوا بإنهيار علاقتهم مع الأتراك. كانت المانيا تمارس النفوذ لغاية واحدة هي كسب الحرب، ولم تقدم على أيـة خطوة لتقويض استقلال الحكومة العثمانية أو مكانة قادة جمعية الإتحاد والترقي. وقد أظهرت المانيا أكثر من أية دولة عظمى أخرى في الجانبين المتحاربين، قدرة على الحيلولة دون تدخل طموحاتها في آسيا لما بعد الحرب في قرارات زمن الحرب، ونتيجة لذلك كانت في أفضل وضع من حيث قدرتها على الاستفادة من فرص اثارة المتاعب خلف خطوط العدو. كان الارتياب متبادلاً بين حكومة امبراطورية هابسبورغ والحكومة العثمانية، وكانتا بدورهما ترتابان أيضاً في الالمان، فتحـدث مشادات لا مفر منها في الميدان بين الضباط المتحاسدين. ولكن الالمان، بوجه عام، فرضوا على حلفائهم في أولى سنوات الحرب في آسيا، ان يفهموا ان كسب الحرب له الأفضلية على الأهداف الأخرى(*).

افغانستان كانت الاستثناء: ففيما كان الأمر يتعلق بها، سمح المسؤولون في المنطقة لشكوكهم المتبادلة ان تأخذ مداها. كانت مهمة الضباط الالمان هي تقويض السيطرة البريطانية على ذلك البلد الإسلامي الشديد المراس - وهي سيطرة مارستها بريطانيا بموجب اتفاقية عام ١٩٠٧ التي أنهت اللعبة الكبرى بين روسيا وبريطانيا. ونتيجة للمشادات بين الالمان والأتراك وبين الالمان بعضهم مع بعض، لم تنجح سوى حملة واحدة من الحملات الأربع التي أرسلت براً عند بداية الحرب في اكمال طريقها والوصول إلى كابول، حيث أمضى الالمان ستة شهور يحاولون عبثاً اقناع الأمير بدخول الحرب ضد بريطانيا. فقد امتنع الأمير عن الإقدام على ذلك ما لم تضع دول أوروبا الوسطى جيوشاً في الميدان لضمان نجاح الثورة. وبما انها لم تستطع ان تفعل ذلك، بقي الأمير بكل هدوء في الحظيرة البريطانية.

بيد ان الدول الوسطى حققت في بلاد فارس نجاحاً كبيراً. كان الالمان، قبل الحرب بزمن طويل، قد عززوا علاقاتهم مع كبار السياسيين الفرس. ثم نجحوا في عام ١٩١٥ في اقناع رئيس الوزراء

(*) لم يكن الأمر سهلاً. ان محفوظات وثائق امبراطورية النمسا - المجر تبين أن المسؤولين في امبراطورية آل هابسبورغ عبروا عن شك عميق في طموحات التوسع التي عزوها الى الامبراطوريتين الالمانية والتركية[1]. كانت امبراطورية النمسا - المجر تتجاوز على مدى قرون حدود الأراضي العثمانية في أوروبا. وقد أدى ضمها للبوسنة والهرسك الى حروب البلقان وهيأ المسرح لحادثة سيراجيفو. واستمرت تنازع الامبراطورية العثمانية على البانيا، التي احتلتها في أوائل الحرب العالمية. وبما أن أسرة هابسبورغ كانت لها أهدافها الاقليمية، كان مسؤولوها يشتبهون بأن مسؤولي أسرة هوهنزولرن يفكرون على المنوال نفسه، الى حد ان حملة جمال باشا على السويس جعلتهم يعبرون عن القلق خشية ان تحاول المانيا ضم مصر. في حين ان المسؤولين العثمانيين كالعادة كانوا لا يثقون بشركائهم الأوروبيين.

(١) فرانك ج. ويبر، **النسور على الهلال: المانيا والنمسا ودبلوماسية التحالف التركي ١٩١٤ - ١٩١٨** (ايتاكا ولندن: مطبعة جامعة كورنيل، ١٩٧٠)، الصفحات ١٠٠ - ١٠٦.

بتوقيع معاهدة تحالف سرية. وحاز السفير الالماني أيضاً تأييد قوة الدرك البالغ عددها سبعة آلاف رجل بقيادة ضباط سويديين، بينما حصل عملاؤه على تأييد مختلف القبائل التي شكلت نحو عشرين بالمئة من مجموع السكان. وفي نهاية عام ١٩١٥ رأى الحلفاء ان الوضع يهدد بالخطر، فاحتل الروس، بدعم من قوة الشركس ـ الفرس البالغ عددها ثمانية آلاف رجل بقيادة ضبـاط روس، الجزء الشمالي من البلاد واستولوا على العاصمة طهران، فأخضعوا لنفوذهم الشاه الضعيف المتوج حديثاً. وقد هرب السياسيون الأكثر ميلاً إلى الالمان، أولاً إلى مدينة قم المقدسة ثم إلى كرمنشاه، قرب الحدود العثمانية، حيث أوجدوا حكومة تابعة للألمان، بدعم من القوات العثمانية.

أما في الجنوب، فإن الأكثر نجاحاً بين الجواسيس الالمان، المدعو فيلهلم فاسموس، أثار تمرداً قبلياً عنيفاً أخمده بصعوبة بالغة البريغادير جنرال سير بيرسي سايكس، وهو من ضباط حكومة الهند، وكان قد أنشأ في عام ١٩١٦ قوة من أهل البلاد قوامها أحد عشر ألف رجل بقيادة ضباط بريطانيين، سماها قوة «سلاح البنادق لجنوب فارس»، وفرض سيطرته على الجنوب متخذاً من مدينة شيراز قاعدة للسلطة. كانت قوة «سلاح البنادق لجنوب فارس»، والشركس الفرس، وما تبقى من قوة الدرك، والكونفدراليات القبلية برعاية الالمان، هي القوات المسلحة المنظمة الوحيدة التي بقيت في ما كان في زمن ما بلداً سيداً وهاماً. ولم تكن هناك قوات مؤثرة تحت تصرف الشاه لكي يحـافـظ على حياد فارس، ويطبق القانون، ويدافع عن وحدة أراضي بلاده. وكانت ولاية أذربيجان في الشمال ميدان معركة بين تركيا وروسيا منذ ان شن أنور هجومه على القوقاز في بداية الحرب. وبما ان الحرب استمرت، كانت القوات الروسية والعثمانية تذرع أراضي الولاية ذهاباً وإياباً، وتحتل الأراضي الفارسية كما تشاء.

لقد حول تحالف الالمان والعثمانيين فارس، التي كانت خاضعة للدول الحليفة وحدها، إلى ساحة قتال متنازع عليها. ومع حلول ١٩١٥ ـ ١٩١٦ كانت بلاد فارس. بالمعنى العملي، قد اختفت ككيان ذي سيادة، دعك عن كونها بلداً خاضعاً للدول الحليفة وحدها.

(٢)

لم تلق المحاولات البريطانية لإثارة السكان العرب وراء الخطوط العثمانية نجاحاً مماثلاً. ولكن جمال باشا، أحد ثلاثي قيادة الاتحاد والترقي، والذي كان يمارس عمله من دمشق، أخذ خطر إثارة العرب مأخذ الجد، إلى حد انه شرع يفتك بالذين يشتبه بأنهم ارتكبوا جريمة الخيانة العـظمى. وفي خضم غاراته على الجمعيات السرية العربية في سورية عـام ١٩١٥، نشر في القسطنطينية في عام ١٩١٦ كتاباً باللغة الفرنسية يحمل شعار الجيش العثماني الرابع، عنوانه «حقيقة المسألة السورية»، وفي هذا الكتاب قدم الأدلة التي ادعى انها تسوغ معاملته للمتآمرين المزعومين. وقد تضمن الكتاب بحثاً بشيء من التفصيل في الجمعيات السرية وأهدافها، وادعى ان الرجال المدانين خونة وليسوا قوميين.

لم يغير السكان العرب ولاءهم، ولا نعرف هل كان ذلك بسبب حملة باشا أو بالرغم منها. لكن

الأمـر الأهم للبـاب العـالي ان الجنود العرب أظهروا ولاءهم ليس فقط للإسلام بل للحكومة العثمانية أيضاً. وقد جاء في مذكرة أعدتها المخابرات البريطانية على أساس مقابلات مع الضباط العرب الأسرى في معسكرات أسرى الحرب، ان معظم الضباط كانوا في الحقيقة مؤيدين لحزب تركيا الفتاة، وحتى الأقلية منهم التي لم تكن مؤيدة «لم تستطع بوازع الضمير ان تقبل القيام بثورة مسلحة والبلاد في مواجهة العدو»[٢].

كان قادة حزب تركيا الفتاة يعتبرون ولاء السكان غير المسلمين في الامبراطورية مسألة مشكوكاً فيها. وكان الباب العالي يرتاب ليس فقط بالمسيحيين بل باليهود أيضاً ـ وخصوصاً الستين ألفاً منهم أو أكثر الذين يعيشون في فلسطين.

والأمر الذي أقلق طلعت وزملاءه، ان ما لا يقل عن نصف اليهود في فلسطين لم يكونوا رعايا عثمانيين. وجميع هؤلاء تقريباً، أي الذين لم يكونوا رعايا عثمانيين، جاءوا من الامبراطورية الروسية، وأكثرهم جاء خلال نصف القرن الذي سبق عام ١٩١٤ وظلوا ـ نظرياً ـ رعايا قيصر روسيا.

لم يكن لدى حركة تركيا الفتاة ما يدعوها لعدم الثقة بهم، لأنهم غادروا أوروبا هرباً من السياسة والمـؤامرات وليس للإنخراط فيها. ولما كانوا قد هربوا من المجازر التي تعرضوا لها في روسيا واوكرانيا وبولندا، فقد كان همهم ان يعثروا على وطن جديد ـ كما فعل كثيرون من اليهود ـ في بلاد تتوافر فيها الفرص مثل الولايات المتحدة، التي كانت ترحب بالمهاجرين. أما الذين اختاروا بدلاً من ذلك صعوبات الحياة الطليعية في فلسطين القاحلة، فقد كانوا أناساً حالمين لا ينشدون سوى السماح لهم بممارسة دينهم أو المثل التي يؤمنون بها، في سلام.

كان الدين حافز بعضهم للمجيء إلى الأراضي المقدسة، وآخرون كانت تحدوهم فكرة استعادة القومية اليهودية التي كان الرومان قد قضوا عليها قبل ذلك بألفي عام. غير ان معظمهم كان من أصحـاب الأفكار الاشتراكية، بل كان هدفهم إقامة مجتمع المساواة والتعاون في مستوطنات زراعية قادرة على الإكتفاء الذاتي في بلد بعيد عن معاداة السامية في أوروبا. ولدى وصولهم أحيوا اللغة العبرية القديمة وأحيوا التربة المتآكلة، وأوجدوا مبدأ الاعتماد على الذات. وفي مطلع القرن العشرين بدأت مستوطناتهم تزدهر، وانتشر أكثر من أربعين منها في الأرض المقدسة. وأقام اليهود مدناً أيضاً. وقد بدأوا في عام ١٩٠٩ ببناء ما أصبح الآن مدينة تل أبيب فوق الكثبان الرملية القاحلة على الساحل، فوجدوا التشجيع والتأييد في الخارج من مجموعة صغيرة نسبياً من اليهود، برنامجها يدعو للعودة إلى صهيون: أي الحركة الصهيونية.

في نهاية عام ١٩١٤، بعيد دخول الامبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى اتخذ جمال باشا، الذي أصبح حاكم سورية وفلسطين، اجراء عنيفاً ضد المستوطنين اليهود. فقد وقع جمال باشا تحت تأثير مسـؤول عثماني شديد العداء للصهيونية يدعى بهاء الدين، فدمر المستوطنات

(٢) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د. ر. ٥٨٨/ ٢٥.

الصهيونية وأمر بطرد اليهود الأجانب كلهم ـ بعبارة أخرى معظم يهود فلسطين. بدأت أعمال الطرد هذه قبل ان تبادر الحكومة الالمانية، بدافع الخوف من تنفير الرأي العام في البلدان المحايدة، إلى اقناع طلعت وأنور بالتدخل، وقد عالج الموضوع السفير الاميركي، هنري مورغنتاو، بالتعاون مع السفير الالماني فون فانغينهايم.

كانت الحكومتان الأميركية والالمانية عاجزتين عن التأثير على الباب العالي، ولم يكن الباب العالي في الوقت نفسه قادراً على الدوام ان يضبط أعمال جمال باشا الذي كثيراً ما تصرف بمفرده، وكان ينظر إلى الجالية اليهودية في فلسطين باعتبارها مكمن خطر. وقد ثبت إلى حد ما ان نبوءته هذه أثبتت صحتها. ففي حين ان معظم ـ يهود فلسطين اختاروا تجنب التورط في الحرب العالمية، عرض دافيد بن غوريون واسحاق بن زفي، وكلاهما طالبا حقوق سابقان في جامعة القسطنطينية وكانا زعيمين للحركة العمالية الصهيونية، أن ينظما جيشاً يهودياً فلسطينياً في عام ١٩١٤ للدفاع عن فلسطين العثمانية. ولكن جمال باشا بدلاً من ان يقبل هذا العرض، تفاهم مع زعماء صهاينة آخرين في عام ١٩١٥، فذهب بن غوريون وبن زفي إلى الولايات المتحدة، وهناك تابعا حملتهما لإنشاء جيش يهودي موالٍ للعثمانيين. ولكنهما في مطلع عام ١٩١٨ انضما إلى تشكيل جيش يهودي أعد للقتال في فلسطين إلى جانب بريطانيا ضد الامبراطورية العثمانية. فلم يكن ثمة شيء في كل ما فعلته الحكومة العثمانية زمن الحرب يدعوهما للبقاء على ولائهما لتركيا.

ومع ذلك، وبالرغم من نزوات جمال باشا واجراءاته القاسية، لم يفعل المستوطنون اليهود في فلسطين شيئاً لتخريب الامبراطورية العثمانية. إلاَّ ان أقلية صغيرة منهم، ولكنها بالغة الفعالية ـ كانت تعمل ضد الامبراطورية العثمانية. عن هذه الأقلية الصغيرة التي كانت بقيادة عالم زراعي يدعى اهارون اهارونسون، سنتحدث عنه في ما بعد.

(٤)

كان اعتقاد الأتراك ان أعمال التخريب الروسية خلف الخطوط العثمانية في المدة ١٩١٤ ـ ١٩١٥ كانت تتم عبر الحدود بالتعاون مع الأرمن في شمال شرقي الأناضول، أي في المنطقة المحاذية لأرمينيا الروسية. هذه الواقعة ما فتئت موضع جدل عنيف منذ ذلك الحين. كانت أرمينيا التركية منطقة انطلاق الهجوم الأول الذي شنّه أنور باشا على هضبة القوقاز، وكانت الهدف الأول للجيوش الروسية عندما انحدرت بدورها من جبال القوقاز في عام ١٩١٥ لغزو تركيا. وبما ان الأرمن مسيحيون فقد كانوا يؤثرون القضية الروسية على القضية التركية. وما من شيء في تاريخ الحكم العثماني كان يحفزهم إلى البقاء على الولاء للقسطنطينية.

إن المجازر التي تعرضوا لها على أيدي الأتراك في الأعوام ١٨٩٤، ١٨٩٥، ١٨٩٦ و١٩٠٩ كانت لا تزال ذكرياتها ماثلة في أذهانهم. ثم ان أنور باشا كان قد أرسل اعداءهم الألدة، أي الأكراد، إلى ارمينيا ضمن الوحدات العسكرية العثمانية، فأشعل من جديد نار خصومات قديمة وهيأ لخصومات جديدة.

لقد ادعى أنور، بصفته وزيراً للحربية، وطلعت بصفته وزيراً للداخلية في أوائل عام ١٩١٥، ان الأرمن يؤيدون روسيا علناً وانهم لجأوا إلى العنف الجماهيري. وانتقاماً منهم، أمرا بترحيل السكان الأرمن جميعهم من الولايات الشمالية الشرقية إلى مواقع خارج الأناضول. ويصر ممثلو الحكومة التركية حتى في الوقت الحاضر على ان «المتمردين الأرمن، بتحريض من روسيا القيصرية وبدعم منها، سعوا إلى اقامة دولة أرمنية في منطقة كانت في غالبيتها تركية»، وانه قبل عمليات الترحيل «ارتكبت القوات الأرمنية مجازر ضد السكان المسلمين في مدينة فان واشتركت في هجمات خاطفة على جناحي الجيش التركي»[٣].

ان عمليات الترحيل التي نظمها طلعت وزير الداخلية لا يزال يتذكرها الناس ويطلقون عليها اسم المجازر الأرمنية لعام ١٩١٥. كان اغتصاب النساء والضرب أمرين شائعين. والذين لم يقتلوا في الحال شردوا عبر الجبال والصحارى دون طعام أو شراب أو مأوى. وفي نهاية الأمر انهار أو قتل مئات الألوف من الأرمن. وتقول المصادر الأرمنية ان العدد بلغ ١,٥٠٠,٠٠٠، ومع ان الأرقام لا تزال موضع خلاف شديد فلا يمكن ان يكون هناك خلاف على النتيجة: لقد دمرت أرمينيا التركية وهلك نصف شعبها.

لا يزال هناك حتى الوقت الراهن مؤرخون يؤيدون ادعاء أنور وطلعت ان الحكام العثمانيين لم يتصرفوا إلّا بعد تمرد الأرمن عليهم[٤]. ولكن المراقبين الذين عاشوا تلك الفترة ولم يكونوا بأي حال معادين للأتراك، يقولون إن الأمر لم يكن كذلك. والضباط الألمان الذين كانت مواقعهم في المنطقة يقولون أيضاً ان المنطقة كانت هادئة حتى بدء أعمال الترحيل[٥].

عندما تلقت السفارتان الالمانية والنمساوية الأنباء الأولى عن أعمال الترحيل عمدتا إلى تجاهلها: كان واضحاً أن موظفي السفارتين اعتقدوا ان مجازر ضد المسيحيين توشك ان تحدث، ولكنهم لم يريدوا ان يعرفوا شيئاً عنها. وقد قبلوا تطمينات طلعت بطيبة خاطر.

ولكن أنباء المجزرة قد أصبحت في شهر أيار (مايو) ١٩١٥ شديدة الاقناع، ولم يعد بالامكان تجاهلها. وأبلغ السفير النمساوي حكومته انه يرى انه ينبغي «تنبيه رجال الدولة الأتراك بأسلوب ودي» إلى ما يمكن ان ينجم عن أعمالهم من عواقب سلبية[٦]. ثم عاد فأبلغها انه تحدث فعلاً إلى طلعت وحثّ على معالجة المسألة معالجة متأنية، واقترح عليه تفادي «ملاحقة النساء

---

(٣) سوكرو ايليكداغ، سفير الجمهورية التركية، رسالة إلى رئيس التحرير، نيويورك تايمز ١١ ايار ١٩٨٣ ص ٢٢.

(٤) ستانفورد ج. شو وايزل كورال شو، **تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة**، المجلد ٢ **الاصلاح والثورة والجمهورية: نشوء تركيا الحديثة ١٨٠٨ ـ ١٩٧٥**، (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٧)، الصفحة ٣١٤ وما يليها.

(٥) اولريش ترومبينير، **المانيا والامبراطورية العثمانية ١٩١٤ ـ ١٩١٨**، (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٦٨)، ص ٢٠٣.

(٦) المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

والأطفال» لأن ذلك سيخدم دعاية الحلفاء[٧]. وفي ٢٤ أيار (مايو) شجبت الحكومات الحليفة سياسة «القتل الجماعي» التي يتبعها الباب العالي، فرد الباب العالي على ذلك قائلاً: إن المسؤولية تقع على عاتق الحلفاء لأنهم نظموا عملية التمرد في أرمينيا[٨]. (ومسألة هل حدث فعلاً تمرد؟ وإذا كان قد حدث فهل نظمته روسيا أو شجعته فقط ـ هذه المسألة تظل، كما ذكرنا، موضع جدل شديد).

تدفقت التقارير من الموظفين الألمان الموجودين على الساحة متضمنة تفصيلات مخيفة عن الفظائع التي ارتكبت. وقد وجد السفير الالماني فون فانغينهايم صعوبة متزايدة في التغاضي عما كان يحدث، وفي منتصف شهر حزيران (يونيو) أبرق إلى برلين قائلاً: إن طلعت اعترف له بأن «الاعتبارات العسكرية»[٩] لم تكن وحدها سبب الترحيل الجماعي. وبالرغم من ان السفير الالماني والسفير النمساوي بالافيسيني لم يتلقيا أي توجيه من حكومتيهما، فقد نقلا إلى الباب العالي مشاعرهما بأن أعمال الترحيل الجماعية والعشوائية، خصوصاً عندما تقترن بأعمال نهب ومجازر، تخلق انطباعاً سيئاً جداً في الخارج، وخصوصاً في الولايات المتحدة، وهذا الأمر يؤثر تأثيراً سلبياً على مصالح المانيا وتركيا المشتركة[١٠].

وفي شهر تموز (يوليو) أبلغ السفير الالماني فون فانغينهايم مستشار المانيا انه لم يعد هناك أدنى شك في ان الباب العالي يحاول «إبادة العرق الأرمني في الامبراطورية التركية»[١١]. وقد استنتج السفير الالماني ونظيره النمساوي انه لن ينجم أي خير عن محاولة التدخل. وكانت توصيته إلى حكومته ان تثبت بالأدلة ان المانيا غير مسؤولة عما كان يحدث[١٢]. وقد خالفه الرأي مسؤولون ألمان آخرون فحاولوا التدخل مثلما حاول الكاهن الالماني يوهانوس ليبسيوس ، ولكن المستشارية الالمانية قبلت نصيحة فون فانغينهايم فطلبت المانيا إلى الباب العالي في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ان يصدر بياناً علنياً يبرىء المانيا من التواطؤ ويذكر ان ممثلي المانيا في الامبراطورية العثمانية حاولوا انقاذ الأرمن[١٣]. ولما رفض الباب العالي هددت مستشارية المانيا بإصدار بيان كهذا على مسؤوليتها، ولكنها ما لبثت ان تراجعت خشية الإساءة إلى تحالفها مع تركيا.

إن المجازر الأرمنية هيأت للدول الحليفة مادة دعائية مفيدة ومؤثرة، وهذا ما خشيه السفيران

(٧) المرجع نفسه، الصفحتان ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٨) المرجع نفسه، الصفحات ٢٠٨ ـ ٢١٠.
(٩) المرجع نفسه، ص ٢١٢.
(١٠) المرجع نفسه، الصفحات ٢١٣ ـ ٢١٦.
(١١) المرجع نفسه، ص ٢١٣.
(١٢) المرجع نفسه، ص ٢١٣.
(١٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

الالماني والنمساوي(*). ولعل هذه المجازر قد أثرت أيضاً على تفكير الحلفاء بشأن شروط التسوية لما بعد الحرب، إذ ان هذه المجازر عززت الحجة القائلة انه لا يمكن ائتمان الامبراطورية العثمانية على سكان غير مسلمين بل ربما على سكان غير أتراك أيضاً.

وكان جلياً للرأي العام المحايد ان طلعت وأنور كانا سعيدين بالتخلص من الأرمن. وكان الموقف العلني الذي اتخذاه هو انهما أحبطا محاولة هدّامة. ومن المؤكد انهما نجحا في القضاء نهائياً على القلاقل، إذ ان أرمينيا أصبحت هادئة هدوء الموت نفسه.

(٥)

لقد توافرت فعلاً للحلفاء فرصة واضحة لتقويض الامبراطورية العثمانية ولكنهم فوتوها عمداً. والذي وفّرها لهم هو جمال باشا. إذ انفرد جمال من بين أعضاء القيادة الثلاثية لحزب تركيا الفتاة في اتخاذ خطوات لتبرئة نفسه من المجازر الأرمنية. وكان هدفه الظاهر هو الابقاء على قنواته مفتوحة مع الدول الحليفة. ومنذ هزيمته عند قناة السويس في مطلع عام ١٩١٥ استقر جمال باشا في دمشق وصار حاكماً لسورية الكبرى ـ أي الولايات الجنوبية الغربية التي تؤلف اليوم سورية ولبنان والأردن واسرائيل ـ وكأنه يحكم اقطاعية خاصة، وفي نهاية عام ١٩١٥ وفيما كانت تقع المجازر الأرمنية اقترح ان يستولي على العرش العثماني لنفسه بمساعدة الحلفاء.

لقد استخدم جمال باشا الجهة التي تمثل الجمعية السياسية الأرمنية الرئيسة، والتي تدعى (داشناق تسوتيوم ـ أي الاتحاد الثوري الأرمني) لنقل مقترحاته. ويبدو انه كان بعمله هذا يستند إلى اعتقاد خاطىء بأن انقاذ الأرمن ـ كعمل متميز عن مجرد استغلال محنتهم لأغراض دعائية ـ هو هدف هام من أهداف الحلفاء. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ أخبر الدكتور زافرييف، وهو مبعوث الداشناق لدى الحلفاء، الحكومة الروسية ان جمال مستعد للإطاحة بالحكومة العثمانية. وصادف ان كان ذلك الشهر هو الشهر الذي بدأ فيه انسحاب الحلفاء من غاليبولي. وفي اعقاب تلك الحملة الكارثية كان بوسع المرء ان يتوقع استعداد الحلفاء لدفع ثمن لإنهاء الحرب مع تركيا.

إن شروط جمال باشا، كما عرضها سازانوف وزير الخارجية الروسي، كانت ترمي إلى قيام تركيا

(*) ان رجل الدولة والمؤرخ والحقوقي الليبرالي جيمس برايس، وهو رجل مؤيد للارمن، ترأس لجنة للتحقيق في المجازر الأرمنية ١٩١٥ ـ ١٩١٦ خلال الحرب، أصدر تقريراً كان له وقع الصاعقة على حكومة جمعية الاتحاد والترقي. والناطقون الأتراك ما زالوا يدعون أن تقرير برايس هو تقرير منحاز وعمل مشوه من أعمال دعاية الحرب، ويستشهدون باعتراف أرنولد توينبي أحد مساعدي برايس، بأن التقرير قصد به خدمة الدعاية البريطانية وأهداف السياسة البريطانية[14]. وقد حقق التقرير نجاحاً في ذلك.

(١٤) سوكرو ايليكداغ، «الارمن مقابل الأتراك: وجهة النظر من استانبول»، جريدة **وول ستريت جورنال**، ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣، ص ٣٣.

حرة ومستقلة (تضم سورية وبلاد الرافدين وأرمينيا المسيحية وكيليكيا وكردستان كولايات ذات حكم ذاتي) ويكون حاكمها الأعلى جمال نفسه بصفة سلطان. وقد وافق جمال سلفاً على الطلب الروسي الذي لا مفر منه بالاستيلاء على القسطنطينية والدردنيل. وعرض أيضاً اتخاذ خطوات فورية لانقاذ الأرمن الذين ظلوا على قيد الحياة، فاقترح ان يزحف على القسطنطينية بمساعدة الحلفاء لخلع السلطان وحكومته، وطلب لقاء ذلك مساعدة مالية تعينه على تعمير بلاده بعد الحرب.

وقد رأى الروس ان يقبلوا اقتراح جمال، وبدا سازانوف واثقاً ان حلفاءه سيوافقون أيضاً[١٥]. ولكن فرنسا رفضت الاقتراح في آذار (مارس) ١٩١٦ وأصرت على ان تكون كيليكيا (في جنوب تركيا الحالية) وسورية الكبرى من نصيبها.

وبدا سير ادوارد غراي، وزير الخارجية البريطانية أيضاً غير مستعد للتشجيع على قيام ثورة خلف خطوط العدو، إذا كان هذا التشجيع يعني التخلي عن المكاسب الإقليمية في تركيا الآسيوية التي سبق لبريطانيا ان وعدت بها حلفاءها. ان حكومات الدول الحليفة في تهافتها على الغنائم أغفلت الشرط الذي تقوم عليه مكاسب المستقبل: وهذا الشرط هو كسب الحرب. لقد أعماها التهافت على الغنيمة فلم تعد ترى ان هناك صراعاً.

إن عرض جمال باشا وفّر للحلفاء فرصتهم الكبرى الوحيدة لتقويض الامبراطورية العثمانية من الداخل، وقد فوتها الحلفاء. ولم يكتشف أنور وطلعت اطلاقاً مراسلات جمال السرية مع الحلفاء، واستمر جمال إلى جانبهم في القتال ضد الحلفاء.

(٦)

استفادت الامبراطورية العثمانية من انها لم تكن الساحة الرئيسة للحرب بالنسبة لأي من أعدائها، الذين ركّزوا جميعاً كل قواتهم وطاقاتهم في أماكن أخرى. ومع ذلك كان أداؤها في زمن الحرب ناجحاً نجاحاً مدهشاً. فقد كانت تحارب على ثلاث جبهات، فهزمت بريطانيا وفرنسا في الغرب في الفترة ١٩١٥ ـ ١٩١٦، وسحقت قوات الهند البريطانية الزاحفة في الشرق في الوقت نفسه، وأوقفت قوات الغزو الروسي في الشمال.

وكان الأداء العثماني خلف خطوط العدو أيضاً مثيراً للإعجاب. فأعمال التخريب التركية والالمانية فككت الامبراطورية الفارسية التي كانت تحت سيطرة الحلفاء. والمفارقة المذهلة ان بريطانيا أخفقت حتى منتصف عام ١٩١٦ في جهودها لكسب الشعوب العربية في الامبراطورية العثمانية، أما محاولة روسيا لاستمالة الأرمن فلم ينجم عنها سوى مذبحتهم الرهيبة.

ترى، هل تؤدي ثورة الشريف حسين الوشيكة في حزيران (يونيو) ١٩١٦ إلى قلب الموقف؟ هل

(١٥) فيروز كاظم زادة، **الصراع على بلاد عبر القوقاز (١٩١٧ ـ ١٩٢١)**، (نيويورك: المكتبة الفلسفية، واوكسفورد: جورج رونالد، ١٩٥١)، الصفحات ٢٧ ـ ٣٠.

ستبرهن على انها أكثر نجاحاً من محاولات الحلفاء السابقة لإثارة الاضطرابات وراء الخطوط العثمانية؟ إذا اعتمدنا مجرى الأمور حتى منتصف ١٩١٦ لكان يجب ان تعتبر فرص النجاح متدنية، لكن كلايتون وزملاءه كانوا كبيري الأمل، وإذا كانت آمالهم في محلها فإنهم سيحققون كسباً عظيماً. كانت ثورة الحسين الوشيكة هي فرصة القاهرة لكسب الحرب في الشرق ولإنقاذ سمعة زعيم القاهرة في زمن الحرب، اللورد كيتشنر.

الفصل الثاني

مهمة كيتشنر الأخيرة

في لنـدن لم تعد إدارة دفة الحرب في عهدة وزير الحربية بل في عهدة رئيس هيئـة الأركـان العـامة لقوات الامبراطورية. وكان لدى مجلس الوزراء ما يدعوه للاعتقاد بأن اللورد كيتشنر فقد الاتصال حتى مع المنطقة التي كان يُفترض انـه يعـرفهـا أحسن معـرفة ـ أي الشرق. والعملية العسكرية البريطانية الوحيدة التي ظل يعارضها حتى النهاية ـ عملية الجلاء عن غاليبولي ـ كانت العملية الوحيدة التي نجحت نجاحاً رائعاً.

ولما كان اسكويث يعتقد انه يستحيل، لأسباب سياسية، السماح لكيتشنر بالاستقالة، ويربكه في الوقت عينه الاحتفاظ به في منصبه، تراءى له ان يرسل وزير الحربية في مهمة أخرى طويلة الأجل ـ مهمة إلى روسيا. ذلك ان رحلته إلى روسيا ـ وبطبيعة الحال كان لا بد له من السفر بحـراً ـ ستستغـرق معـظم النصف الثاني من عام ١٩١٦. كان تجاوزاً للحدود تكليف هذا الجندي المتقدم في السن والقادم من المناطق شبه الاستوائية برحلة بحرية طويلة وخطرة في البحار المتجمدة الشمالية، ولكن كيتشنر قبل مهمته الجديدة وهيأ نفسه للسفر.

لكن الحظ الذي حالفه طويلاً وصل أخيراً إلى النهاية. ولو انه مات في عام ١٩١٤ لبقيت ذكراه بصفته أعظم جنرال بريطاني بعد ولينغتون. ولو انه مات في عام ١٩١٥ لظلت ذكراه على انه الرجل الذي تنبأ بطبيعة الحرب العالمية الأولى ومدتها ومنظم جيش بريطانيا الضخم. أما في عام ١٩١٦ فقد أصبح محارباً قديماً متقدماً في السن ينتمي إلى عصر مضى وغير قادر على التعامل مع المتطلبات التي ألقيت على كاهله في أوقات متبدلة. ويفترض انه أسرّ إلى أحد زملائه في مجلس الوزراء قائلاً: «هؤلاء الناس يتوقعون مني الكثير جداً. أنا لا أعرف أوروبا، ولا أعرف انكلترا، ولا أعرف الجيش البريطاني»[1]. لقد ظل قلبه وذهنه مع جيوش زمن الاستعمار في مصر والهند

(١) هـ. مونتغمري هايد، كارسون (لندن: وليم هاينمان، ١٩٥٣)، ص ٣٩٠.

التي كان قد أعاد تنظيمها والتي درّبت لكي تصدع لأوامره. أما في أوروبا الحديثة فقد وجد نفسه ضائعاً.

قبيل ظهر الجمعة ٢ حزيران (يونيو) ١٩١٦ ذهب اللورد كيتشنر إلى محطة كينغز كروس للقطارات، دون مرافقة تقريباً ودون ان ينتبه إليه أحد. وقد تأخر القطار دقيقة ونصف الدقيقة عن موعد انطلاقه، فاستبد به نفاد الصبر، لأنه كان يكره التأخير. وبعد المغادرة انطلق القطار مسرعاً إلى الميناء الذي سيبدأ منه كيتشنر رحلته.

في ميناء سكابا فلو، مقر قيادة الاسطول عند طرف اسكوتلندا الشمالي، صعد كيتشنر وصديقه المخلص فيتزجيرالد إلى الطراد المدرع هامبشاير بعد ظهر ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٦ في طريقهما إلى ميناء اركانجل الروسي. كان خط مغادرة الطراد هامبشاير قد رسم، ولكن حدث ما اقتضى تبديله. فالمخابرات البحرية التي سبق ان حلّت الرموز الالمانية اللاسلكية قد اعترضت رسالة موجهة إلى الغواصة (يو ٧٥) الباثة للالغام، وكان ذلك في أواخر شهر أيار (مايو). واستدلت المخابرات البحرية من الرسالة انه كان مطلوباً من الغواصة ان تلغم الطريق التي كان الطراد هامبشاير ينوي سلوكها. وقد تأكدت هذه المعلومات من اعتراض رسالتين أخريين، كما تأكدت بمشاهدة الغواصة. لقد حدث ارتباك في مقر القيادة العامة البريطانية في سكابافلو وفشل الاميرال سير جون جيليكو، القائد البحري البريطاني وضباط الأركان في قيادته في قراءة أو فهم التحذيرات التي وجهتها المخابرات البحرية إلى سفينة القيادة التي كانوا على متنها. (عندما انعقدت هيئة تحقيق في وقت لاحق من عام ١٩١٦ للنظر في المسألة، تمكن الاميرال جيليكو من اخفاء تحذيرات المخابرات وأنكر وجودها، ولم يكتشف أمرها إلاّ في عام ١٩٨٥)[٢].

كانت البحار عاصفة، ولكن كيتشنر رفض ان يؤجل مغادرته. وأخطأ ضباط الأميرال جيليكو في قراءة خرائط الأحوال الجوية التي كان لا بد ان تبين لهم ان العاصفة سوف تشتد، في حين اعتقدوا هم انها سوف تهدأ. وعند الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر، بدأ الطراد هامبشاير رحلته وسط رياح عاتية. وكانت الحالة الجوية أعنف من ان تتحملها مدمرات مهمتها الحراسة والمرافقة، ولذلك عادت إلى الميناء بعد ساعتين، وواصل الطراد هامبشاير الرحلة وحده. وفي وقت ما بين الساعة السابعة والنصف والسابعة والدقيقة الخامسة والأربعين اصطدم بأحد الألغام التي بثتها الغواصة (يو ٧٥) فغرق مع كل بحارته تقريباً.

لدى انفجار اللغم صعد كيتشنر وفيتزجيرالد إلى سطح الطراد يتبعهما ضباط من هيئة أركانهما. أحد الناجين من الحادث يستذكر «ان الكابتن قائد الطراد كان ينادي اللورد كيتشنر لركوب أحد الزوارق ولكن اللورد كيتشنر كما يظهر لم يسمعه أو انه لم يلق بالاً إليه»[٣]. كانت النجاة من هذه السفينة التي تواجه قدرها المحتوم تبدو أمراً خارج الامكانية، ولم يقدم الفيلد مارشال على

(٢) تريفور رويل، **لغز كيتشنر** (لندن: مايكل جوزيف، ١٩٨٥)، الصفحة ٣٥٥ وما يليها.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧٣.

أية خطوة لمحاولة النجاة. لقد وقف على سطح الطراد هادئاً ووجهه خالٍ من أي تعبير نحو ربع ساعة. إن الناجي الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد غرق الطراد هامبشاير لم ينس قط منظره إذ لمحه آخر مرة مرتدياً معطفه وواقفاً على السطح منتظراً بغير مبالاة ان تغرق السفينة[٤]. بعد ذلك ابتلعت الأمواج الهائجة اللورد كيتشنر وسفينته.

لقد جرفت الأمواج جثمان فيتز جيرالد إلى الشاطىء، أما كيتشنر فقد اختفى في أعماق اليم. وبعيد ذلك سرت في بريطانيا اسطورة شعبية تقول إن اللورد كيتشنر نجا من الموت وسيعود يوماً ما.

(٤) «فضح الغلطة التي قتلت اللورد كيتشنر»، جريدة **صنداي تايمز**، أيلول ١٩٨٥، ص ١٣. انظر أيضاً: جورج كسار، **كيتشنر: مهندس النصر** (لندن: وليم تيمبر، ١٩٧٧)، ص ٤٧٨. لكن ناجياً آخر ادعى ان كيتشنر لم يكن مرتدياً معطفاً، أنظر: فيليب وارنر، **كيتشنر: الرجل وراء الاسطورة** (لندن: هاميش هاملتون، ١٩٨٥)، ص ١٩٩.

ثورة الحسين

(١)

شاءت المصادفة التي كثيراً ما يجري الحديث عنها، ان يلقى اللورد كيتشنر نهايته في البحر، في الوقت الذي أعلن فيه الشريف حسين أمير مكة ثورته على الامبراطورية العثمانية. لقد أمر الحسين بإعلان الثورة عندما اكتشف ان في نية قادة تركيا الفتاة ان يخلعوه. ولكن الأوساط الرسمية البريطانية في القاهرة والخرطوم، التي لم تكن على علم بذلك، اعتبرت الثورة انجازاً من انجازات مدرسة كيتشنر - أي انجازاً حققه وينغيت وكلايتون وستورز - وانجازاً للتكتيك الذي اتبعوه، تكتيك التلويح أمام الأمير بامكانيات غامضة ولكنها فخمة بالنسبة لأمجاد المستقبل. كان مقر المعتمد البريطاني في القاهرة قد عمل مدة تقرب من تسعة أشهر من أجل اشعال شرارة الثورة. وعندما بلغ القاهرة نبأ الثورة في الصحراء قال ويندهام ديدز إنها «نصر عظيم لكلايتون»[1].

أما بالنسبة للحسين، فقد كان الأمر شيئاً أقرب ما يكون إلى الاعتراف بالهزيمة. فقد كانت سياسته تقضي بأن يظل محايداً وان يأخذ الرشاوى من كلا الجانبين. وقد انتقل إلى جانب الحلفاء كارهاً، حمله على ذلك الخطر الوشيك، خطر الاطاحة به على يد جماعة تركيا الفتاة. وبعد اكتشافه عزم هذه الجماعة على عزله وجد نفسه أمام أخطار جديدة بدءاً من صيف ١٩١٥، عندما شرع جمال باشا في سحق الانشقاق الذي ظهر في الأوساط العربية التي كان الحسين (بواسطة ابنه فيصل) يتصل بها في دمشق. لقد اتخذ جمال باشا اجراءاته على أساس وثائق حصل عليها من القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق، وهي تكشف أسماء العرب المشاركين في المؤامرة واسم عميل بريطاني رئيس واحد على الأقل. فجرت اعتقالات وتبعتها تحقيقات وأعمال تعذيب ومحاكمات من قبل المحكمة العسكرية. وفي ٢١ آب (اغسطس) ١٩١٥ صدر

(١) جون بريسلاند (الاسم المستعار لغلاديس سكيلتون)، ديدز بك: دراسة عن سير ويندهام ديدز ١٨٨٣ - ١٩٢٣ (لندن: مكميلان، ١٩٤٢)، ص ٢٦٣.

حكم على أحد عشر شخصاً بتهمة الخيانة وأعدموا. وفي الأشهر التالية جرى المزيد من الاعتقالات والمزيد من المحاكمات. وكان عدد من المعتقلين شخصيات بارزة في الحياة العربية. وكان بين الذين تعرضوا للتعذيب والاستجواب في السجن أشخاص كان بإمكانهم ان يكشفوا تفاصيل محادثات فيصل مع جمعيتي العهد والفتاة السريتين، وان يكشفوا وعود الحسين إلى كيتشنر ومكماهون. ولم يكن الأمير متأكداً أن هؤلاء سيحافظون على الصمت فأرسل نداءات إلى جمال باشا والباب العالي طالباً الرحمة للسجناء. فما كان من نداءاته إلّا انها زادت موقفه ضعفاً على ضعف.

ثم ان الحسين علم من جمال باشا في نيسان (ابريل) ١٩١٦ ان قوة عثمانية منتقاة ومدربة تدريباً خاصاً على وشك ان تعبر الأراضي الحجازية إلى طرف شبه الجزيرة العربية، حيث ستقيم مجموعة مرافقة مؤلفة من ضباط ألمان محطة للبرق. وكانت القوة العثمانية في حد ذاتها كافية لسحق الحسين في أثناء عبورها عبر أراضيه. وهذا النبأ دفع بالأمير حسين إلى الإقدام على عمل متسرع، وحملته على ان يوجه الضربة الأولى وان يطلب حماية الاسطول البريطاني على طول الساحل. وفي السادس من أيار (مايو) أعدم واحد وعشرون شخصاً آخر في دمشق وبيروت، ولم يكن هذا النبأ متوقعاً ولذلك أدى إلى تسريع برنامج الحسين.

كان الحسين بفطنته قد حصل على أكثر من ٥٠,٠٠٠ جنيه ذهباً من الباب العالي لإعداد وتجهيز قوات لمكافحة البريطانيين. إلى هذا المبلغ أضاف القسط الأول من دفعة كبيرة من بريطانيا لإعداد وتجهيز قوات لمكافحة الأتراك[٢]. وقد أعلنت الثورة في الحجاز في وقت ما بين ٥ و١٠ حزيران (يونيو) ١٩١٦. وتحرك الاسطول البريطاني فوراً على طول ساحل الحجاز فروّع بذلك القوة الالمانية التركية وحال دون تقدمها أكثر.

كان اعتقاد المكتب العربي ان الثورة ستلقى التأييد في سائر أنحاء العالم الإسلامي والعالم العربي. والأهم ان المكتب العربي اعتقد ان الثورة ستلقى التأييد، مما اعتقد البريطانيون انه جيش عثماني أكثريته من العرب. وكان فيصل وأبوه الحسين قد قالا انهما يتوقعان ان ينضم إليهما نحو مئة ألف جندي عربي[٣]. وهذا العدد كان يمثل نحو ثلث القوة المقاتلة للجيش العثماني. وفي أنباء أخرى ان الحسين توقع ان ينضم إليه نحو ٢٥٠,٠٠٠ جندي، أي كامل عدد الجنود المقاتلين في الجيش العثماني تقريباً[٤].

لكن الثورة العربية التي كان الحسين يأمل في حدوثها لم تحدث اطلاقاً. فلم تنضم إليه أية

(٢) س. ارنست دون، **من العثمانية إلى العروبة: مقالات عن اصول القومية العربية** (اوربانا وشيكاغو ولندن: مطبعة جامعة ايلينوي، ١٩٧٣)، ص ٣٣.

(٣) كيو، مكتب السجل العام. أوراق كيتشنر. وزارة الخارجية ٨٨٢ المجلد ١٩ ا. ب/١٦/٥.

(٤) اوكسفورد، كلية سانت انطوني، مركز الشرق الأوسط، أوراق مارك سايكس د.ن. ٥٨٨ (د.س. ٤٤/٢٤٤) جيلبرت كلايتون ٤٧٠/٤.

وحـدات عربية في الجيش العثماني، ولا انضم إليه وإلى الحلفاء أية شخصيات سياسية أو عسكرية من الامبراطورية العثمانية، والمنظمة العسكرية السرية القوية التي كان الفاروقي قد وعد بانضمامها إلى الحسين لم يظهر لها أثر. كانت قوات الحسين مؤلفة من بضعة آلاف من رجال القبائل الذين يحصلون على دعم مالي من بريطانيا. ولم يكن عند الحسين جيش نظامي. وخارج الحجاز وما جاورها من القبائل لم يكن هناك أي تأييد منظور للثورة في أي جزء من العالم العربي. والعدد الضئيل من الضباط غير الحجازيين الذين انضموا إلى قوات الأمير المسلحة كانوا إما أسرى حرب أو منفيين سبق ان عاشوا في أراضٍ خاضعة للسيطرة البريطانية.

أولى المشكلات العسكرية التي ظهرت ان العصبة الصغيرة من أتباع الأمير القبليين كانت بلا حول تجاه المدفعية العثمانية. فهجماتها على الحاميات التركية في مكة وبالقرب من الطائف قد صدت، وكذلك كان حال هجماتها على المدينة المنورة وميناء جدة. وقد هبّت السفن والطائرات البريطانية لنجدتها فهاجمت جدة. وما ان ضمن البريطانيون السيطرة على الميناء حتى أنزلوا جنـوداً مسلمـين من الجيش المصري بدأوا تقـدمهم إلى الداخل لمساعدة الشريف حسين في السيطرة على مكة والطائف. أما ميناء رابغ، الذي كان عدد المدافعين الأتراك عنه يقل عن ثلاثين جندياً، فقد تمّ الإستيلاء عليه بيسر، وكذلك الأمر بالنسبة لميناء ينبع. وهكذا سيطر الأسطول البريطاني على ساحل شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر، وأقام وجوداً بريطانيا على البر في الموانيء.

ولم يسمح الحسين لوحدات عسكرية بريطانية مسيحية بالتقدم إلى الداخل. وكانت وجهة النظر التي أبداها، والتي اعتبرها البريطانيون ضيقة الأفق، ان السماح لهذه الوحدات بدخول البلاد سيضعف وضعه في العالم الإسلامي وسيواجه باستياء شديد إذا ما دخل غير مسلمين الأراضي التي تضم الأماكن المقدسة.

المشكلة كانت ان الحسين بقواته وحدها لم يكن نداً للأتراك. وقد كتب الناشط ريجينالد وينغيت، حاكم السودان العام إلى كلايتون قائلاً: إن على بريطانيا ان ترسل جنودها شاء الحسين أم أبى، ونـوّه بأنه كان طوال الوقت يحبذ إرسال حملة بريطانية إلى الحجاز(٥). ولكن رؤساء وينغيت خالفوه الرأي، ولذلك اتبعت بريطانيا سياسة تقديم المساعدة العسكرية المهنية إلى الحجاز قدر الإمكـان، من بين الضباط والجنود المسلمين. حتى هذه السياسة واجهت أيضاً صعوبات في أرض المكائد.

وبتوصية حازمة من السلطات البريطانية جرى تعيين الرائد عزيز المصري رئيس أركان للقوات التي قادها اسمياً الأمير علي ابن الشريف حسين. وقد تولى منصبه في أواخر عام ١٩١٦، وفي غضون شهر عُزل من القيادة نتيجة مكيدة سوداء، فحل محله رجل قدير هو جعفر العسكري، وهو ضابط عربي كبير في الجيش العثماني أسرته القوات البريطانية.

---

(٥) جامعة دورهام، محفوظات وثائق السودان. أوراق جيلبرت كلايتون ٤٧٠/ ٤.

تقـول إحدى الروايات ان المصري كان يخطط للقبض على زمام الأمور لكي يفاوض من أجل الانتقال من جانب إلى آخر. وقد تحدث عن التوصل إلى ترتيب تعود بموجبه قوات الحجاز إلى الحظيرة العثمانية لقاء موافقة الباب العالي على منح المناطق العربية حكماً ذاتياً محلياً[٦].

لم يكن الأمر مجرد اعتقاد المصري وزملائه بأن المانيا ستربح الحرب. فبعد مرور سنتين، وبعد ان أصبح واضحاً ان الحلفاء هم الذين سيربحون الحرب، كان الفريق ياسين الهاشمي، الذي كان في وقت ما قائد جمعية سرية عربية في دمشق (والذي زعم الفاروقي انه يمثله عندما خدع كلايتون وغيره في القاهرة)، مستمراً في رفضه الانتقال من جانب إلى آخر. لقد أخطأ جيلبرت كلايتون في قراءته لسياسة الجمعيات السرية العربية: فقد كانت هذه الجمعيات تعارض شديد المعارضة مخططات بريطانيا تجاه الشرق الأوسط. كانت هذه الجمعيات عازمة عند بداية الحرب على مساندة الامبراطورية العثمانية لمواجهة خطر الغزو الأوروبي[٧]. وظلت وفيّة لما عزمت عليه. لقد فضّلت الحكم الذاتي أو الاستقلال إذا أمكن تحقيقه، وإلاّ فإنها تفضل حكم المسلمين الأتراك على حكم المسيحيين.

وتابع الحسين نفسه، منذ الأيام الأولى لثورته، اتصالاته مع جماعة تركيا الفتاة بغية تبدل موقفه والعودة إلى جانب العثمانيين في الحرب. وقد نقلت «النشرة العربية» (العدد رقم ٢٥ تاريخ ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٦) عن عبدالعزيز بن سعود، أحد زعماء شبه جزيرة العرب، قوله: «إن الشريف حسين كان يرمي أصلاً إلى ان يوغر صدور البريطانيين على الأتراك، لكي يحمل الأتراك على منحه استقلالاً تضمنه المانيا».

ظل برنامج الحسين الأساسي ثابتاً: ان يحصل على مزيد من السلطة والحكم الذاتي بصفته أميراً في الامبراطورية العثمانية، وان يجعل منصبه وراثياً. ومع ان البريطانيين لم يكونوا بعد على علم بمراسلات الأمير مع العدو، فإنهم ما لبثوا ان تبدد وهمهم به لأسباب أخرى. فقد تبين لهم ان الحسين أبعد ما يكون عن كونه قائد قومية عربية ناشئة حديثاً، بل هو حاكم لا يلقي بالاً إلى القومية، وهمه الوحيد ان يستولي على سلطات جديدة وأراضٍ جديدة. وقد عقب على ذلك ديفيد هوغارت، ضابط المخابرات الذي كان على رأس المكتب العربي، فقال بجفاء: «واضح ان الملك يعتبر الوحدة العربية مرادفة لكونه ملكاً...»[٨].

لقد أصرّ الأمير على اعلان نفسه ملك العرب، مع ان رونالد ستورز كان قد حذره باسم القاهرة، من ان يفعل ذلك. وكتب ستورز في وقت لاحق قائلاً: «كان يعرف أكثر مما نعرف انه لا يستطيع

---

(٦) مجيد خضوري، «عزيز علي المصري والحركة القومية العربية»، في: البرت حوراني، **شؤون الشرق الأوسط**، رقم أربعة أوراق سانت انطوني، رقم ١٧ (لندن: مطبعة جامعة اوكسفورد ١٩٦٥)، الصفحات ١٤٠ ـ ١٦٣، والصفحات ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٧) جورج انطونيوس، **يقظة العرب: قصة الحركة القومية العربية** (نيويورك: كتب كابريكورن، ١٩٦٥)، ص ١٥٣.

(٨) دون، **العثمانية**، ص ٤٧.

ان يتقدم بأي ادعاء حقيقي» انه ملك جميع العرب[٩]. وفي هذا الصدد، تبين لرونالد ستورز «ان ادعاءات الأمير بالملك تصل إلى حدود المأساة والهزل» ومع ذلك فهو يشعر ان على بريطانيا واجب مساندته إلى أبعد ما يمكن[١٠]. لقد أصيب المكتب العربي بخيبة أمل شديدة لأن زعامة الحسين فشلت في إثبات وجودها وترسيخ مكانتها.

(٢)

يعود الفضل إلى توماس لورنس، العضو ذي المرتبة المتدنية في المكتب العربي، في ان وجهات النظر الحقيقية لهذا المكتب قد سُجلت بشكل ملائم، الأمر الذي وفّر بياناً بالملاحظات والأفكار الشخصية التي أبدتها في ذلك الحين تلك المجموعة الصغيرة من أتباع كيتشنر، التي تولت تنظيم ثورة الحسين وعلّقت عليها أملاً كبيراً. وكان لورنس هو الذي اقترح ان يصدر المكتب العربي نشرة معلومات، وصدرت النشرة أولاً بعنوان: «معلومات موجزة عن المكتب العربي» ثم صارت تصدر بعنوان: «النشرة العربية». بدأ إصدارها في ٦ حزيران (يونيو) ١٩١٦ واستمر على فترات غير منتظمة حتى نهاية ١٩١٨. وقد تولى لورنس تحرير أول أعدادها. وخلال معظم الأشهر الثلاثة التي تبعت صدور العدد الأول، تولى تحريرها ديفيد هوغارت، المختص بعلم الآثار من جامعة أوكسفورد والذي عمل مديراً للمكتب العربي. وفي نهاية فصل الصيف تولى رئاسة التحرير بصورة دائمة الكابتن كيناهان كورنواليس، نائب هوغارت.

كانت «النشرة العربية» تصدر عن مكاتب «المكتب العربي» في فندق سافوي في القاهرة وتحمل اشارة «سرية». ولم يطبع من أي عدد سوى ست وعشرين نسخة. وتضمنت قائمة التوزيع المحدود نائب الملك في الهند والقائدين العامين البريطانيين في مصر والسودان. وكانت تُرسل أيضاً نسخة إلى كل من وزارة الحربية والامبرالية في لندن. وكانت أعداد النشرة توفر نطاقاً واسعاً من المعلومات السرية الراهنة والمعلومات التي تشكل خلفية بشأن العالمين العربي والإسلامي.

لقد أشار لورنس في العدد الأول (٦ حزيران (يونيو) ١٩١٦)، الذي صدر في الوقت الذي بدأت فيه الثورة في الحجاز، إلى وجود مشكلات تعترض الجمع بين العرب حتى لغايات الثورة. وكتب يقول انه سرعان ما كانت تنشأ الانشقاقات حيثما كانت هنالك تجمعات قبلية كبيرة، وبما ان الأتراك على علم بذلك، فقد كانوا يتربصون دون ان يفعلوا شيئاً. كانوا يؤجلون «بسبب توقعهم الأكيد ان الانشقاقات القبلية لن تلبث ان تفتت خصومهم».

نقلت «النشرة العربية» في عددها الخامس (١٨ حزيران (يونيو) ١٩١٦) نبأ بدء الثورة التي كان الحسين قد أعلنها قبل ذلك بأسبوع أو اسبوعين. وأشار هذا العدد والعدد السادس (٢٣ حزيران (يونيو) ١٩١٦) إلى ان العمليات العسكرية التي قامت بها قوات الحسين لم تحقق

(٩) **مذكرات سير رونالد ستورز** (نيويورك: ج. ب. بوتمان وأولاده، ١٩٣٧)، ص ١٦٧.

(١٠) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

سوى نجاح زهيد، وحتى هذا النجاح الزهيد يعود الفضل فيه إلى القوات البريطانية. وجاء في العدد السادس ان الأتراك على الساحل حوصروا من قبل السفن والطائرات البحرية البريطانية والعرب.

وقد احتمى الأتراك بالأسوار فأرغموا على الاستسلام بسبب فقدان الغذاء والماء، لأن الآبار التي يستقون منها كانت خارج الأسوار. ونقل العدد السابع (٣٠ حزيران (يونيو) ١٩١٦) عن الأتراك الذين أسروا في جدة قولهم «ان القذائف والقنابل» الانكليزية «هي التي استولت على المدينة».

لقد كان هناك تعريض بأفراد قوات الحسين كجنود. فقد جاء في العدد السادس «لعلهم مجرد رجال قبائل» و «جميعهم غير مدربين، وليست لديهم مدفعية ولا رشاشات. إن الأفضلية عندهم هي للمظاهر في الحرب، ومن الصعب الإبقاء على تماسكهم مدة طويلة ما لم يكن الدفع والمخصصات الغذائية مغرية لهم». وكتب لورنس تحليلاً مفصلاً في العدد الثاني والثلاثين (٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦) نحا فيه المنحى نفسه فقال: «أظن ان مفرزة من الأتراك محصنة تحصيناً جيداً على أرض مكشوفة تستطيع ان تهزم جيوش الشريف حسين. إن قيمة القبائل هي قيمة دفاعية فقط ومجالها الحقيقي هو مجال حرب العصابات». وكتب أيضاً قائلاً: «إنهم فرديون للغاية لا يطيقون اصدار الأوامر إليهم، ولا يقاتلون جماعة، ولا يساعد أحدهم الآخر. وأظن انه يستحيل انشاء قوة منظمة منهم».

وقعت دعوة الحسين إلى الثورة على آذان صماء في سائر أنحاء العالمين العربي والإسلامي وفق ما ذكرته «النشرة العربية». وقد ورد في الأعداد الصادرة طوال عام ١٩١٦ ان استطلاعات الرأي على نطاق عالمي جاءت بردود تتراوح بين اللامبالاة والعداء. إن العدد التاسع والعشرين (٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦)، الذي نشر نبأ اعلان الشريف حسين انه أصبح يحمل لقب ملك العرب، تضمن تعليقاً لاذعاً جاء فيه: «إن الأمير، الذي يدّعي الاعتراف به ملكاً، هو أعجز من ان يثبت هذا الادعاء»، وان حكومة جلالته ليست عازمة على توقيع صك أبيض بشأن مستقبل التنظيم السياسي للشعوب العربية. وكتب هوغارث في العدد الحادي والأربعين (٦ شباط (فبراير) ١٩١٧): «إن إمكانية توحيد شبه الجزيرة العربية تحت حكم ملك الحجاز أو أي شخص آخر تبدو بعيدة جداً. إن (القضية العربية) هي بكل جلاء عبارة عن اسمنت ضعيف للغاية في شبه الجزيرة العربية، وكره الأتراك أقوى من هذه القضية، والرغبة في وقفة جيدة معنا ربما كانت أقوى من هذا الكره».

بعد نحو عام من اعلان الحسين الثورة العربية كان هوغارث مستعداً للحكم عليها بالفشل. ففي عرض بعنوان «سنة في عمر الثورة» في الحجاز أعده ونشر في العدد الثاني والخمسين (٣١ أيار (مايو) ١٩١٧) قال إنه توصل إلى الاستنتاج أن هذه الثورة لم تحقق الآمال المعلقة عليها ولا تبرر المزيد من التوقعات: «لقد ظهر بما لا يقبل الشك ان بدو الحجاز ليسوا إلاّ محاربين بطريقة العصابات، وحتى بهذه الصفة ليسوا من نوعية جيدة، وقد ظهر ذلك منذ الحصارات الأولى، ولم

يعد هناك أي شك في انهم لن يهاجموا الجنود الأتراك النظاميين ولن يصمدوا أمام هجومهم». وقال أيضاً ان أفضل ما يمكن ان نأمله في المستقبل من الحركة العربية بقيادة الحسين هو «ان تصمد في مكانها فقط».

لم يكن هذا مردوداً جيداً للاستثمار البريطاني. فقد جاء في بيان لاحق أعده رونالد ستورز ان بريطانيا أنفقت ما مجموعه أحد عشر مليون جنيه استرليني لدعم ثورة الحسين[11]. وهذا المبلغ كان في حينه يعادل نحو ٤٤ مليون دولار، وإذا حسبناه بسعر العملة حالياً فإنه يناهز أربعمئة مليون دولار. إضافة إلى ذلك كان الاستثمار البريطاني العسكري والسياسي في ثورة الحسين كبيراً أيضاً. فقد كتب ريجينالد وينغيت بتاريخ ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨، وكان في ذلك الحين قد خلف كيتشنر ومكماهون في منصب الحاكم العام البريطاني في مصر، قائلاً: «لقد نظر المسلمون عامة حتى الآن إلى ثورة الحجاز، وإلى نصيبنا فيها، بعين الريبة والكراهية». وقال إنه أمر هام ألّا نسمح بأن يبدو الحسين فاشلاً لئلا تسوء سمعة بريطانيا.[12]

(٣)

بعد مرور ثلاثة أسابيع على اعلان الحسين الثورة، أبلغت وزارة الحربية البريطانية مجلس الوزراء في لندن ان العالم العربي لا يسير خلف قيادة الحسين. وقد جاء في مذكرة سرية أعدتها الأركان العامة لوزارة الحربية من أجل اطلاع اللجنة الحربية المنبثقة عن مجلس الوزراء بتاريخ الأول من تموز (يوليو) ١٩١٦، ان الحسين «قدم نفسه دائماً في مراسلاته مع المندوب السامي، بصفته الناطق باسم الأمة العربية، ولكن في حدود ما نعرف حتى الآن، لم تؤيده أية منظمة عربيـة، وليس هناك ما يضمن قبول الشروط التي وافق هو عليها قبولاً آلياً»[13]. واستنتجت المذكرة انه ينبغي للحكومة البريطانية ألّا تعتقد بأن الاتفاقات التي توصلت إليها معه سيحترمها الزعماء العرب الآخرون.

وفي الوقت نفسه تقريباً أعد سير مارك سايكس مذكرة سرية عنوانها «مشكلة الشرق الأدنى» وتنبأ فيها بأن تسحق حركة الشريف الحسين في أوائل عام ١٩١٧ إلّا إذا تلقى مساعدة بريطانية عاجلة. ورأى سايكس مكتئباً ان تركيا ستكون عند نهاية الحرب أكثر البلدان المتحاربة ارهاقاً وسوف تستولي عليها شريكتها المانيا. وقال سايكس في مذكرته ان الامبراطورية العثمانية لن تكون أكثر من مستعمرة المانية[14]. وتحليله في هذا الصدد كان مقدمة للآراء الجديدة بشأن

---

(١١) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

(١٢) ايلي كدوري، **في المتاهة الانكليزية ـ العربية: مراسلات مكماهون ـ الحسين ومترجموها ١٩١٤ ـ ١٩٣٩** (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٦)، ص ٢٠١.

(١٣) اوكسفورد. كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق مارك سايكس. د.ر. ٥٨٨ (د.س. ٤/٢٤٤).

(١٤) المرجع نفسه.

الشرق الأوسط التي كان مقدراً لها ان تسود الأوساط الرسمية البريطانية في العام التالي بتأثير من ليو أميري وزملائه.

كان سايكس قد أصبح مساعد صديقه موريس هانكي سكرتير مجلس وزراء الحرب الذي يرأسه اسكويث. وظل سايكس في منصبه الجديد يهتم بالشرق. وقد سبق له ان أصدر ما سمي «التقرير العربي» في لندن، فكان هذا التقرير المقدمة لصدور «النشرة العربية» في القاهرة. ولدى وصول صديقه جيلبرت كلايتون من مصر في النصف الثاني من عام ١٩١٦، مَثُل كلاهما أمام اللجنة الحربية للحث على دعم ثورة الحسين في الحجاز. وحث كلاهما أيضاً على ابدال سير هنري مكماهون المندوب السامي في مصر، إذ ان مكماهون كان تعيينه مؤقتاً لإبقاء المنصب شاغراً للورد كيتشنر، فلما مات الفيلد مارشال أراد أتباع كيتشنر ان يكون المنصب لواحد منهم هو ريجينالد وينغيت[*].

أمضى سايكس جانباً كبيراً من وقته خلال صيف ١٩١٦ في القاء خطب عامة، وفي هذه الخطب أطلق على ألسنة الناس التعبير الوصفي الجديد «الشرق الأوسط» الذي سبق ان ابتكره الضابط البحري والمؤرخ الأميركي الفريد تاير ماهان في عام ١٩٠٢ تعبيراً منه عن المنطقة الواقعة بين شبه الجزيرة العربية والهند[١٥]. وقد عزز سايكس بهذه الخطب شهرته كخبير في شؤون هذه المنطقة من العالم.

وفي شهر أيلول (سبتمبر)، وفيما كانت تقارير المخابرات الواردة من القاهرة تشير إلى ان ثورة الحجاز كانت تنهار بأسرع مما كان متوقعاً، دعا سايكس إلى ارسال دعم عسكري فوري إلى الحسين ـ وفقاً لخطة قدمها وتحمس لها مكماهون ووينغيت ـ ولكن إلحاحه ذهب أدراج الرياح. ذلك ان روبرتسون، رئيس الأركان الجديد لقوات الامبراطورية ذا الصلاحيات المطلقة، رفض ان يحول جنوداً أو جهوداً من الجبهة الغربية.

بدت قضية الحسين في أواخر صيف وخلال خريف عام ١٩١٦ انها تمر في أتعس أوقاتها، مع ان سيطرة بريطانيا البحرية على ساحل البحر الأحمر ضمنت بقاء أنصار الأمير. وخطرت للبريطانيين فكرة إرسال بضع مئات من أسرى الحرب العرب الموجودين في جبهة بلاد الرافدين التابعة للهند لكي يلتحقوا بالحسين. وعندما كرر سير ارشيبالد مري، القائد العام (منذ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦) للجيش البريطاني في مصر، القول إنه لا يستطيع الاستغناء عن أي جنود لإرسالهم من أجل الدفاع عن الحسين، اقترح المندوب السامي سير هنري مكماهون طلب المساعدة من فرنسا، ثم أرسل مساعده رونالد ستورز في مهمة إلى شبه جزيرة العرب ليستوضح هل من شيء آخر يمكن عمله.

(*) لقد نجحوا في نهاية الأمر فعين وينغيت مندوباً سامياً، ولكن تعيينه تأخر حتى كانون الثاني (يناير) ١٩١٧.

(١٥) برنارد لويس، **الشرق الأوسط والغرب** (نيويورك ولندن: هاربر كتب تورتس)، ص ٩.

(٤)

في نهـاية صيف ١٩١٦ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة إلى الحجاز لمحاولة منع انهيار ثورة الشريف حسـين. كان على رأس البعثـة الكـولونيـل ادوار بريمـون، وقـد وصلت البعثة إلى الاسكنـدرية في الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩١٦ ومن هناك توجهت بحراً إلى شبه الجزيرة العربية فوصلت إلى ميناء جدة في العشرين من أيلول (سبتمبر)[١٦].

كان نظير بريمون في جدة هو الكولونيل ويلسون كبير الضباط البريطانيين في الحجاز وممثل حكـومـة السودان - أي ممثل وينغيت الذي كان سيتولى عما قريب الإشراف العملياتي من الجانب البريطاني على ثورة الحجاز. وكان الكابتن هيوبرت يونغ، مساعد ويلسون، موجوداً في السفارة البريطانية في جدة (التي كانت تسمي نفسها مكتب الحج لأنها تعنى بشؤون الحجاج المسلمـين من الهند البريطانية وأماكن أخرى) لكي يستقبل بريمون عند وصوله. وقد التقى بريمـون أيضـاً نائب الأميرال سير روسلين ويميس، الذي كان الاسطول البريطاني بقيادته يتحكم بالمرور عبر البحر الأحمر بين مصر والسودان وشبه جزيرة العرب، وكانت سفنه تنقل الضباط والجنود عبر هذا البحر.

كانت مهمة بريمون ان يدعم ثورة الحجاز عن طريق تزويدها بمستشارين عسكريين ممتهنين من بين المسلمـين سكـان الامبـراطورية الفرنسية، باعتبار انهم سيكونون مقبولين من قبل الشريف الحسين. كانت البعثة الفرنسية بقيادة بريمون تضم ٤٢ ضابطاً و٩٨٣ رجلاً. إن حجم البعثة الفرنسية حفز الجانب البريطاني المزاحم إلى إرسال دعم آخر من ضباطه للعمل تحت قيادة ويلسون. وفكر بريمون بدوره ان يزيد حجم قواته من أجل تعزيز قوات الشريف التي كانت ضعيفة إلى درجة الخطر. والحقيقة هي ان عبدالله، أقرب أبناء الشريف حسين إلى تفكير أبيه، كان يخشى قيام القوات العثمانية المرابطة في المدينة المنورة بمهاجمة واكتساح مواقع الثوار على الطريق المؤدية إلى مكة.

في منتصف شهر تشرين الأول (اكتوبر) غادر رونالد ستورز مصر إلى الحجاز بحراً حاملاً معه رأيـاً بديـلاً في معالجة الموضوع. فقد جاء ستورز لدعم الرائد عزيز المصري الزعيم القومي للجمعية السرية الذي كانت القاهرة قد عهدت إليه بتدريب واعادة تنظيم قوات الحجاز، وقد وصفنا في صفحة سابقة ما حدث له بعد ان أمضى مدة قصيرة في موقع القيادة. كان رأي عزيز المصري ان السماح لجنود الحلفاء، حتى ولو كانوا مسلمين، بأن يشاركوا بمزيد من العلنية في حملة الشريف حسين، سيشكل كارثة سياسية. وكان رأيه أيضاً ان قوات مكة تستطيع ان تقاتل بفعالية ومن دون مساعدة إذا ما درّبت على أساليب حرب العصابات.

---

(١٦) الرواية عن انشطة بريمون تستند إلى الجنرال اد. بريمون، **الحجاز في الحرب العالمية** (باريس: مايو، ١٩٣١).

وقد وضع ستورز ترتيبات من أجل مجيء صديقه الشاب، ضابط المخابرات الصغير توماس لورنس ، إلى جدة بالباخرة. وكانت قد تجمعت للورنس بضعة أسابيع من الإجازات المتراكمة، فأراد ان يمضيها في شبه الجزيرة العربية التي لم يسبق له ان زارها. وقد استأذن ستورز في ان يصحبه لورنس فحصل على الإذن، فوصلا معاً إلى جدة.

كان توماس ادوارد لورنس في الثامنة والعشرين من عمره، ولو انه كان يبدو في التاسعة العشرة أو العشرين. وعندما تقدم للخدمة العسكرية رفضوه باعتباره صغير السن. كان طوله لا يتجاوز خمسة أقدام وبضع بوصات. وقد وصفه هيوبرت يونغ بأنه «رجل صغير فعلاً»[١٧]، أما رونالد ستورز شأنه شأن أكثرية الآخرين، فقد كان يناديه «لورنس الصغير» ولكنه في الوقت عينه كان يصفه بأنه «صاحب دماغ كبير»[١٨].

ظروف لورنس الشخصية بدت غير ممتازة. فالظاهر انه كان من أسرة فقيرة ومن خلفية متواضعة، وعمل في مجموعة المكتب العربي التي ضمت أعضاء في البرلمان، وأصحاب ملايين، وأشخاصاً من الطبقة الارستقراطية. وكان قد ذهب إلى مدرسة المدينة في أوكسفورد بدل ان يذهب إلى مدرسة عامة (بالمعنى البريطاني) مثل ايتون وهارو، ووينشيستر أو ما ماثلها. كان ذا مرتبة دنيا في جهاز المكتب العربي ولم تكن في سجله أية انجازات عسكرية.

سبق ان عمل لورنس مع ديفيد هوغارث المختص بعلم الآثار في المتحف الأشمولي، وبعد ان أصبح هوغارث رئيساً للمكتب العربي سعى لتعيين لورنس في القسم الجغرافي بوزارة الحربية في خريف ١٩١٤ بصفة ملازم ثانٍ مترجم مؤقت[١٩]. ومن موقعه في القسم الجغرافي ذهب إلى الشرق الأوسط لإعداد خرائط لقسم المساحة وبقي في القاهرة للقيام بأعمال أخرى.

عندما وصل ستورز ولورنس إلى جدة استقبلهما عبدالله ابن الشريف حسين. بدا عبدالله في نظر لورنس مخيباً للآمال، ولكن عبدالله أعجب بلورنس إلى حد انه ضمن له الإذن الذي كان يتوق إليه لورنس بالذهاب إلى الميدان للقاء أبناء أمير مكة الآخرين. كان هذا نجاحاً كبيراً بالنسبة للورنس. وفي ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٦) كتب الكولونيل الفريد باركر الذي كان أول رئيس للمكتب العربي والذي خدم رئيساً للمخابرات العسكرية في ثورة الحجاز رسالة إلى كلايتون قال فيها: «قبل وصول لورنس كنت متحمساً لفكرة الذهاب إلى داخل البلد وكان أملي ان أذهب. حذار ان تظن انني أحسده، لا سيما انه سيقوم بالمهمة خير قيام. إن حكومة الحجاز منذ ذهابه غير ميّالة للموافقة على رحلات أخرى»[٢٠].

---

(١٧) الرائد سير هيوبرت يونغ، **العربي المستقل**، (لندن: جون مري، ١٩٣٣).

(١٨) ديزموند ستيوارت وت.ا. لورنس (نيويورك ولندن: هاربر ورو، ١٩٧٧)، ص ١٤٨.

(١٩) رواية انشطة لورنس تستند اساساً إلى ستيوارت، **لورنس** ، وإلى يونغ، **العربي المستقل**، وإلى كتابات لورانس.

(٢٠) **مفكرات باركر باشا**، أعدها للطباعة هـ. ف. ف. دنيستون، (لندن ونيويورك: كتب كوارتيت، ١٩٨٣)، ص ١٥٨.

في الميدان زار لورنس فيصل وزعماء آخرين وكتب في ما بعد إلى أحد زملائه ليخبره انه وجد فيصل ساحراً «إنه فاتن حقاً»[٢١]... وقرر لورنس ان يكون فيصل القائد الميداني لثورة الحجاز: فبين مؤهلات فيصل الأخرى، بدا انه صاحب الدور المنشود.

أرسل لورنس بمبادرة منه تقريراً خطياً إلى ريجينالد وينغيت، حاكم السودان العام، الذي كان سيحل قريباً مكان مكماهون في منصب المندوب السامي في مصر. وعندما غادر لورنس الحجاز في تشرين الثاني (نوفمبر)، لم يعد إلى القاهرة مباشرة بل ذهب بحراً إلى السودان وقدم نفسه إلى وينغيت.

لا بد ان لورنس، عبر الصداقة التي جمعت بينه وبين جيلبرت كلايتون، ممثل السودان في القاهرة، قد تعرف إلى نظرة وينغيت لمستقبل السياسة الشرق أوسطية، ولا بد انه من خلال ذلك عرف ان وينغيت يهدف إلى تأمين سيطرة بريطانيا على الشرق الأوسط العربي بعد الحرب، وانه يهدف (مثله) إلى منع فرنسا من إقامة مركز لها في المنطقة. ومع ان وينغيت رغب في انقاذ قوات الحسين من الهزيمة ومن امكانية تدميرها، فمن غير الممكن انه أراد ان يتم الانقاذ على أيدي فرنسيين ـ لأن ذلك ينطوي على مجازفة باخضاع الحركة العربية بزعامة الحسين إلى نفوذ فرنسي طويل الأجل.

اقترح لورنس على وينغيت مشروعاً بديلاً لمشروع بريمون القاضي باستخدام وحدات عسكرية نظامية فرنسية ومن دول حليفة أخرى للقيام بالجانب الأكبر من القتال عوضاً عن قوات الحسين. ومشروع لورنس هو استخدام رجال القبائل التابعين للشريف حسين كقوات غير نظامية في حرب عصابات بقيادة بريطانية. وكان عزيز المصري هو في الأصل الذي اقترح فكرة حرب العصابات على لورنس، وفي نيته استبعاد فرنسا وبريطانيا من شبه جزيرة العرب. لكن لورنس عدّل الخطة بحيث تؤدي إلى استبعاد فرنسا فقط. وأضاف لورنس انه يجب تعيين فيصل قائداً للقوات الشريفية الضاربة، وطالب بأن يكون هو ضابط الاتصال الوحيد الذي سيتعامل فيصل معه.

كان وينغيت ميّالاً للموافقة. فهو في سنة ١٩١٤ كان أول من حثّ على تحريك القبائل في شبه جزيرة العرب لإثارة المتاعب في وجه تركيا. وبمعنى ما، كانت الخطة التي يدعو لورنس إلى تطبيقها هي خطة وينغيت عينها. والحقيقة ان وينغيت ادعى في رسالة كتبها إلى جنرال رفيق له بعد مرور عشرين سنة، انه هو ـ وليس «لورنس الصغير المسكين» ـ الذي أطلق الحركة العربية وساندها وجعل قيامها ممكناً[٢٢].

---

(٢١) اوكسفورد، كلية سانت انطوني. مركز الشرق الأوسط. أوراق ن.أ. لورنس. دبس. ٢٤٤/٤.

(٢٢) لندن. المتحف الحربي الامبراطوري. أوراق ت. ا. لورنس ٦٩/٤٨/٢.

كانت مقترحات لورنس ملائمة أيضاً للسلطات العسكرية البريطانية في القاهرة، فهي لم تتوقع ان تنجح حملة حرب العصابات التي اقترحها نجاحاً عظيماً ـ بل على العكس تماماً ـ ولكن لم يكن لديهـا جنود يمكن الاستغناء عنهم لإرسالهم إلى الحجاز، ولذلك ابتهجت هذه السلطات عندما علمت ان لا حاجة لإرسال هؤلاء الجنود. وقد ارتفعت مكانة لورنس في نظر هذه السلطات لأنه لم يطلب ارسال قوات.

غادر لورنس القاهرة مرة أخرى في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ وفي أوائل كانون الأول (ديسمبر) تولى منصبه إلى جانب فيصل. وقد أصبح وينغيت مندوباً سامياً في كانون الثاني (يناير) ١٩١٧، وأمد لورنس بمبالغ كبيرة من الذهب متزايدة ليبتاع بها تأييد القبائل العربية. مع ذلك انقضى فصل الشتاء وفصل الربيع عام ١٩١٧ من دون ورود أخبار عن تحقيق رجال القبائل أي نجاح عسكري ذي شأن.

كان أبرز اخفاق لثورة مكة هو فشلها في ان تضم إليها المدينة المنورة، المدينة المقدسة الكبيرة الأخرى في الحجاز. تقع المدينة المنورة على بعد نحو ثلاثمئة ميل شمال شرق مكة، وهي تقطع الطريق التي تمتد شمالاً إلى سورية. وقد هاجمها اتباع الشريف حسين في الأيام الأولى للثورة، فهزموا بسهولة ولم تتمكن قوات الحسين من الاستيلاء عليها خلال الحرب. كما انهم لم يتمكنوا من تجاوزها لتهاجم حاميتها التركية الكبيرة في أحد جناحيها أو من الوراء.

كانت المدينة المنورة محاطة بسور من الحجارة الصلبة، يقال انه بني في القرن الثاني عشر، وأقيمت على السـور أبراج، كما تقع إلى الشمال الغربي قلعة فيها الحامية العثمانية، وكانت محـطة الخـط الحـديـدي الحجازي الممتد من دمشق، تقع داخل السور، وبواسطتها تأتي الإمدادات والتعزيزات. ومع ان جماعات البدو بقيادة الحلفاء استمرت تنسف الخط الحديدي بالديناميت خلال الحرب فقد واصلت الحامية العثمانية اصلاحه وأبقته صالحاً للاستعمال.

إن وجود العثمانيين في المدينة المنورة، الذي قطع على رجال قبائل الشريف حسين الطريق التي كان عليهم ان يسلكوها ليشاركوا في مسرح العمليات الرئيس في حرب الشرق الأوسط، بدا وكأنه يظهر عجز الحسين عن التقدم إلى أي مكان. وكان ظاهراً ان الثورة التي انطلقت من مكة قد جمدتها أسوار عمرها قرون تحيط بالمدينة المنورة. أما بنية السلطة العثمانية فبقيت ثابتة في مكانها، ولم تكن في مرحلة متقدمة من الفساد كما سبق للمراقبين الأوروبيين ان ذكروا.

الجزء الخامس

الخلفاء في أدنى طالعهم

الفصل الاول

سقوط حكومات الدول الحليفة:
بريطانيا وفرنسا

(١)

بين خريف عام ١٩١٦ وخريف عام ١٩١٧ ظلت الامبراطورية العثمانية صامدة، بينما انهارت حكومات أعدائها، الدول الحليفة. وكان هذا بالضبط عكس ما توقعه القادة السياسيون والعسكريون الأوروبيون.

لقد لعب نجاح الجيش العثماني في الحفاظ على الدردنيل دوراً مباشراً في إسقاط حكومة رئيس الوزراء اسكويث في بريطانيا وحكومة القيصر نقولا في روسيا. وبسقوط الحكومتين البريطانية والروسية، ثم سقوط الحكومة الفرنسية في عام ١٩١٧، تولى السلطة في العواصم الحليفة الثلاث قادة جدد كانت لهم وجهات نظر متشددة تجاه الشرق الأوسط، وكانت آراؤهم هذه تختلف كل الاختلاف عن آراء أسلافهم.

إن رئيس الوزراء الذي جر بريطانيا إلى الحرب كان أول زعيم من زعماء الحلفاء يسقط ضحية الحرب. وقد قال بونار لو مرة في رسالة كتبها إلى اسكويث ان: «الضرورة في الحرب تتطلب ليس فقط ان يكون المرء نشطاً بل أيضاً ان يبدو نشطاً»[1]. وقد بدا اسكويث بأساليبه المتصفة بالبلادة والروح الارستقراطية انه عكس ذلك، كان قد بلغ مكانة القمة في السياسة البريطانية، ولكن إحدى نواحي نبوغه الخاص انه كان يجعل انتصاراته تبدو وكأنها تحققت بغير جهد. لم يكن متسرعاً في تعريف الشؤون السياسية والحكومية، وبدا دائماً وكأنه يملك الوقت الكافي لحضور مأدبة عشاء أخرى، ولزيارة أخرى إلى الريف أو ـ وهذا كان يحدث أكثر مما يجب ـ لارتشاف كأس أخرى من الكونياك.

وفيما تزايدت الكوارث العسكرية في بلاد الرافدين، وغاليبولي، وعلى الجبهة الغربية، بدا أسلوب رئيس الوزراء في إدارة الحكم من خلال مجلس الوزراء معتمداً على إجماع الآراء، اسلوباً غير حاسم، كما ان إحجامه عن دعوة الأمة إلى اقرار اجراءات شديدة كالخدمة العسكرية الالزامية، دلّ على انه دون الاخلاص الكامل لهدف كسب الحرب.

---

(١) روبرت بليك، **رئيس الوزراء المجهول: حياة وازمنة اندرو بونار لو ١٨٥٨ ـ ١٩١٨** (لندن: ايير وسبوتسوود، ١٩٥٥)، ص ٢٩٠.

كان لويد جورج نقيض ذلك تماماً، إذ جعل من مسألة الخدمة الالزامية قضيته الخاصة. وهو بتقدمه الصفوف في هذه المسألة أظهر مقدار التبدل الكبير في موقفه السياسي. وفي حين ان اسكويث، الذي جرّ بلاده إلى الحرب، بقي متمسكاً بالحريات المدنية المعمول بها في زمن السلم وبالقيم الليبرالية، برز لويد جورج الراديكالي سابقاً والذي عارض حتى اللحظة الأخيرة دخول الحرب، كزعيم مستعد للتضحية بالحقوق الفردية في سبيل تحقيق النصر. أما الليبراليون التقليديون، الذين عارضوا دائماً الخدمة العسكرية الالزامية، فقد شعروا ان لويد جورج آخذ في الانتقال إلى المعسكر الآخر.

وإذ خسر لويد جورج اصدقاءه السياسيين القدامى، اكتسب أصدقاء جدداً، ثبت ان اثنين منهم كانا على أهمية خاصة. أحد هذين هو سير ادوارد كارسون، الايرلندي المتمرد على حزب المحافظين الذي قاد الكفاح من أجل التجنيد الالزامي في مجلس العموم. أما الثاني فهو المنافح عن الامبريالية، الفرد ميلنر، الذي قاد الكفاح من أجل التجنيد في مجلس اللوردات، وقاد هذا الكفاح في البلد عموماً بصفته رئيس رابطة الخدمة الوطنية. كان ميلنر إدارياً استعمارياً بارزاً، وسبق ان تحمل مسؤولية كبيرة عن شن حرب البوير، تلك المجازفة في جنوب افريقيا عند نهاية القرن الماضي التي عارضها لويد جورج، الشاب المثالي، معارضة شديدة[٢]. آنذاك حمل لويد جورج حملة شديدة على ميلنر. كان لويد جورج الشاب القادم من ويلز بصفته راديكالياً، يعارض التوسع الامبريالي، والتورط في الخارج والمجازفات العسكرية. أما اللورد ميلنر، الذي كان اتحادياً ليبرالياً، فقد تحول إلى ملهم للمحافظين من الجناح اليميني، وجعل من نفسه قطب الفكر الامبريالي. كان هدفه الأسمى هو اتحاد الامبراطورية[*]. وكان مع الشباب الذين تجمعوا حوله في جنوب افريقيا ـ أي ما كان يسمى «روضة أطفال ميلنر ـ يشجعون حركة دمج الامبراطورية المترامية الأطراف في وحدة عضوية واحدة[**]. وقد كان ميلنر ادارياً من الطراز الأول، وتبين للويد جورج ان مهارات ميلنر لا تقدر بثمن في العمل لكسب الحرب.

(٢)

أصبح لويد جورج وزيراً للحربية بعد موت كيتشنر في عام ١٩١٦، ولكنه وجد نفسه بلا حول من حيث وضع نهاية للكوارث العسكرية المضنية في ذلك العام، ويفيد أحد التقديرات ان مجموع الاصابات العسكرية والمدنية في سائر النزاعات الأهلية والدولية في أوروبا خلال المئة سنة من عام ١٨١٥ إلى عام

---

(٢) مسؤولية ميلنر عن الحرب أكدها توماس باكنهام في كتابه: **حرب البوير** (نيويورك، راندوم هاوس، ١٩٧٩).

(*) كان هدف ميلنر الأسمى اقامة اتحاد يضم الشعوب البيضاء في الامبراطورية البريطانية. بيد ان الأعضاء الآخرين في بطانة ميلنر كانوا يدعون إلى اتحاد متعدد العروق في الامبراطورية.

(**) ليونيل جورج كوريتس، سكرتيره السابق، ساعد في عام ١٩١٠ في انشاء المجلة الفصلية «المائدة المستديرة» التي كانت تدعو إلى قيام فيديرالية للأمبراطورية البريطانية. وكان سكرتيره السابق الآخر، جون بوتشان، داعية متحمساً للامبراطورية، وكسب جمهوراً واسعاً عن طريق الروايات التي كتبها، وهي روايات مغامرات نالت شعبية. أما جفري روبنسون، وهو خريج آخر من خريجي «روضة الأطفال» فقد أصبح رئيس تحرير جريدة «التايمز».

١٩١٥ لم تزد على خسائر قتال يوم واحد في أي من معارك عام ١٩١٦ الكبرى. لقد جاء هجوم «سوم» في تموز (يوليو) ١٩١٦[٣]. في أعقاب غاليبولي وبلاد الرافدين وفي أعقاب أحداث دامية كوقوع ١٤٢,٠٠٠ اصابة في صفوف البريطانيين خلال أربعة أيام فقط من القتال في آراس، فرنسا. إن مجيء هجوم «سوم» بعد كل هذه الأحداث رفع حالة اليأس إلى الذروة. وقد فقد البريطانيون ٦٠,٠٠٠ رجل يوم الأول من تموز (يوليو)، وهذه أفدح خسارة لحقت بجيش بريطاني في يوم واحد[٤]. وعند انتهاء الهجوم كانت الاصابات البريطانية في «سوم» قد ارتفعت إلى ٤٢٠,٠٠٠. في عداد هذه الإصابات كان ريموند اسكويث، ابن رئيس الوزراء.

لقد يئس لويد جورج من النصر وهو يرى الاجتماعات الطويلة وغير الفعالة التي كان يعقدها مجلس الوزراء الحربي برئاسة اسكويث، ويسمع المناقشات التي لا تنتهي ولا تتخذ بنتيجتها أية قرارات. فقال في حديث مع موريس هانكي في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) «سوف نخسر الحرب»[٥].

في الوقت عينه تقريباً، تجدد الجدل حول غاليبولي، مذكراً العالم السياسي كم كانت حكومة اسكويث خرقاء عندما شنت الحرب، وارتكبت الحكومة حماقة بموافقتها على إجراء تحقيق رسمي في حزيران (يونيو) بشأن حملة الدردنيل. ولما كان تشرشل لا يشغل أي منصب، فقد تفرغ لإعداد الوثائق التي تدعم حجته بأن زملاءه هم من يتحمل اللوم في كارثة غاليبولي. وقد دب الرعب في نفس رئيس الوزراء الذي عمل من أجل ان يقتصر التقرير على استنتاجات لجنة التحقيق، وان تستبعد منه الشهادات والبينات الأخرى التي استند إليها التقرير. بالرغم من ذلك، وقع الضرر السياسي، وأسهم التحقيق في مسألة غاليبولي في سقوط أول حكومة ائتلافية.

رُويت قصة سقوط اسكويث مرات عديدة، فلم تعد حاجة لتكرار سردها هنا مطولاً. لقد لعبت الصحافة البريطانية دوراً رئيساً في سقوطه، وكانت الصحافة البريطانية آنذاك خاضعة لسيطرة رجل واحد، وهو أمر لم يحدث من قبل ولا من بعد. فقد كان الفرد هارمسورث، فايكونت نورثكليف، يسيطر على نصف صحافة لندن في زمن كانت فيه المطبوعات، قبل اختراع الإذاعة والتلفزيون، هي واسطة الاتصال الجماهيرية الوحيدة. وبامتلاكه جريدة «التايمز»، بما لها من مهابة، وجريدة «الديلي ميل»، بما لها من جاذبية شعبية، استحوذ على «الطبقات والجماهير»[٦]. وقد استخدم نورثكليف سلطته الهائلة ليضفي طابعاً دراميا على الحجة القائلة ان اسكويث وزملاءه المدنيين منعوا قادة الجيش والأسطول من كسب الحرب.

لقد احتشدت صحف نورثكليف وراء سير ادوارد كارسون، المحامي البريطاني الأول صاحب الشهرة في المحاكمات القضائية، الذي قاد الثورة على الحكومة في البرلمان وفي البلاد عامة. كان كارسون مهاجماً، يمثل أخطر حيوان في الغاب السياسي. وبدا هذا الرجل الايرلندي النحيل الأسمر الحاقد، في حملاته اللاذعة

---

(٣) نورمان ستون، **تحول أوروبا ١٨٧٨ ـ ١٩١٩** (لندن: فونتانا ذات الغلاف الرخيص، ١٩٨٣)، ص ٣٦٦.

(٤) ا. ج. ب. تيلور، **الحرب العالمية الأولى: تاريخ مصور** (لندن: هاميش هاملتون، ١٩٦٣)، ص ١٠٣.

(٥) كنيث مورغان، **لويد جورج** (لندن: ويدنفيلد ونكولسون، ١٩٧٤)، ص ٩٢.

(٦) بليك، **رئيس الوزراء المجهول**، ص ٢٩٤.

على الحكومة، انه يمثل كل ما يفتقر إليه رئيس الوزراء. لقد كتب عنه أحد المؤرخين قائلاً: لقد انتشرت فكرة تقول إنه يمتلك قوة الدفع، والتصميم العنيد، والعداء الذي لا يفتر تجاه الألمان. هذه الصفات المتباينة تبايناً شديداً مع التسويف التعس الذي كان يعزى إلى اسكويث وزملائه»[٧].

في خريف عام ١٩١٦ بدأ لويد جورج يقيم صلة عمل وثيقة مع كارسون، مع انه أنكر ذلك. ثم ان سير ماكس ايتكين (في ما بعد لورد بيفربروك) ضم إليهما بونار لو ليشكلوا معاً تجمعاً سياسياً. وقد استقال اسكويث بعد مناورات معقدة وصار في المعارضة بعد ان أخذ معه نصف حزبه الليبرالي وزعماءه جميعاً ما عدا لويد جورج. وبتحريض من ايتكين (قال لويد جورج: «إن ايتكين هو الذي جعل بونار لو يقرر تحطيم حكومة اسكويث»)[٨]، ألقى بونار لو بثقل الحزب الاتحادي ـ المحافظ وراء لويد جورج. (أحد الشروط الرئيسية التي فرضها المحافظون هو استبعاد تشرشل من الحكومة الجديدة). وقد انضم إليهم عدد كبير من الليبراليين أصحاب المقاعد الخلفية في مجلس العموم، وكذلك حزب العمال الصغير الحجم. وفي ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ أصبح رئيس وزراء بريطانيا على رأس ثاني حكومة ائتلافية.

سارع لويد جورج إلى فرض دكتاتورية حالة الحرب. وقد عهد بإدارة شؤون الحرب إلى مجلس وزراء حربي تألف بداية من خمسة أعضاء، برئاسة رئيس الوزراء الجديد. وضم هذا المجلس في عضويته أيضاً بونار لو الذي صار زعيماً لمجلس العموم ووزيراً للمالية، وكذلك ارثور هندرسون، من حزب العمال. كان معظم أعمال مجلس الوزراء الحربي يقوم به عضوا المجلس الآخران: اللورد ميلنر الذي كان لويد جورج يعتمد عليه اعتماداً خاصاً، وإلى درجة أقل اللورد كورزون. وأصبح موريس هانكي سكرتيراً لمجلس الوزراء الحربي وتولى مهمة متابعة تنفيذ قرارات المجلس.

كان هذا تبدلاً ثورياً كاسحاً في طريقة حكم البلاد. وقد تولى آرثر بلفور، رئيس الوزراء السابق، وزارة الخارجية في الحكومة الجديدة. وفي ملاحظة منه بشأن لويد جورج قال في ذلك الحين: «إذا شاء ان يكون دكتاتوراً فليكن. وإذا كان يعتقد انه يستطيع ان يربح الحرب فأنا مؤيد له في محاولته»[٩].

كان أحد الآثار الناجمة مصادفة عن تغير الحكومة هو تغير أهداف بريطانيا في الشرق الأوسط. فقد خرج من الحكم اسكويث وغراي، الرجلان الوحيدان في الحكومة اللذان كان لديهما شك في رغبة الاستيلاء على أراضٍ جديدة في الشرق. ومات اللورد كيتشنر الذي كان يفرض على مجلس الوزراء وجهات نظره الخاصة المتعلقة بالشرق الأوسط. وقد كان رئيس الوزراء الجديد معارضاً طوال الوقت لوجهات نظر كيتشنر.

فقد كان لويد جورج، خلافاً لكيتشنر، يعتقد ان الشرق يمكن ان يكون ذا أهمية كبرى في كسب الحرب، وظل على اعتقاده هذا. ومما يدل على ذلك ان هانكي كتب في مفكرته اليومية بعد بضعة أيام على تولي لويد

---

(٧) المرجع نفسه، ص ٢٩٧.

(٨) مفكرة اللورد ريدل عن الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ (اوكسفورد: ايفور نيكولسون ووطسن، ١٩٣٣)، ص ٣٣٤.

(٩) ا. ج. ب. تيلور، التاريخ الانكليزي ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ (اوكسفورد: مطبعة كلارندون، ١٩٦٥)، ص ٧٣.

جورج رئاسة الحكومة «تناولت طعام الغداء مع لويد جورج، وكان حديثه معظم الوقت عن خططه لضربة عسكرية كبيرة في سورية»[١٠].

وفي ما يتعلق بمستقبل المنطقة، كان لويد جورج ينطلق إلى حد كبير من كراهيته لنظام الحكم التركي. فقد ورث من زعيمه السياسي الأول، عضو حزب الأحرار في القرن التاسع عشر وليم غلادستون، كره الامبراطورية العثمانية بسبب قسوتها على رعاياها المسيحيين. وكان يتعاطف مع اليونان بما لها من مطامع إقليمية في آسيا الصغرى، ويتبنى طموحات الصهيونية في الأرض المقدسة. غير انه في ما يخص هذه المسألة الأخيرة، أوضح انه يتوقع قيام وطن قومي يهودي في نطاق حكم بريطاني. والأمر الذي لم يتضح إلّا بعد مضي سنة أو سنتين على تولي لويد جورج السلطة أن هذا كان ينظر إلى الشرق الأوسط ليس باعتباره طريقاً إلى الهند فحسب، بل باعتباره أيضاً مكسباً يستحق في حد ذاته ان يسعى لنيله. وخلافاً للوزراء البريطانيين في القرن التاسع عشر الذين كان يقتصر هدفهم على إبعاد الدول الأوروبية الأخرى عن المنطقة، سعى لويد جورج لفرض الهيمنة البريطانية على الشرق الأوسط.

لقد كان لويد جورج بصفته رئيساً للوزراء، يزداد تقارباً مع ميلنر والامبريالية. وقد كتب هانكي في وقت لاحق ان ميلنر «كان الوزير الذي يمنحه لويد جورج ثقته أكثر من أي وزير آخر ما عدا، ربما، بونار لو ـ ولكنه كان الأكثر اعتماداً عليه من حيث المشورة السياسية»[١١]. وكان لويد جورج براغماتياً وانتهازياً. أما ميلنر، بخلفيته الالمانية، فقد كان منظماً في عمله وفي فكره وكان يمد رئيس الوزراء بما يفتقر إليه.

لقد شدد ميلنر قبضته على حكومة لويد جورج عن طريق تعيين اتباعه في هيئة أمانة السر التي يرأسها هانكي. وقد نجح هانكي في الاحتفاظ بمارك سايكس، اختياره الشخصي، كواحد من مساعديه الثلاثة(*)، أما مساعداه الآخران فهما ليو اميري، أحد أتباع ميلنر الخلّص، ووليم اورمسبي ـ غور سكرتير ميلنر البرلماني.

وعندما حذا لويد جورج حذو الرئيس الأميركي في البيت الأبيض بتعيين هيئة مساعديه غير الرسميين، كانت لميلنر يد في ضم بعض أتباعه إلى هذه الهيئة، أمثال ليونيل كورتس أحد مؤسسي مجلة «المائدة المستديرة» التي كانت تدعو إلى اتحاد للأمبراطورية وأمثال فيليب كير رئيس تحرير هذه المجلة. وقد وضعت هيئة المساعدين في مبانٍ مؤقتة في حديقة مبنى رئاسة مجلس الوزراء

(١٠) ستيفن روسكيل، **هانكي: رجل الأسرار**، المجلد ١، ١٨٧٧ ـ ١٩١٨ (لندن: كولينز، ١٩٧٠)، ص ٣٢٩.
(١١) تيرنس هـ. اوبريان، **ميلنر**، (لندن: كونستابل، ١٩٧٩)، ص ٧٩.

(*) كتب هانكي الى لويد جورج يبلغه أن سايكس كان «بصورة رئيسة خبيراً في الشؤون العربية» ولكنه لم يكن «بأي حال من الأحوال خبيراً في مجال واحد» بل ان سعة أفقه يمكن «أن تكون صفة لا تقدر بثمن عند وضع شروط الصلح»[١٢].

(١٢) جون غريغ، **لويد جورج. من السلم إلى الحرب ١٩١٢ ـ ١٩١٦** (لندن: متوين، ١٩٨٥)، ص ٤٨٩.

في شارع داوننغ رقم ١٠ وأطلق عليها لقب «ضاحية الحديقة».

منذ الأيام الأولى لتولي رئيس الوزراء الجديد منصبه، نشأ نوع من دكتاتورية شخصين. ففي الحادية عشرة من قبل ظهر كل يوم كان لويد جورج يجتمع مع ميلنر بحضور هانكي ورئيس هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية، ولم يكن يجتمع مع بقية أعضاء مجلس الوزراء الحربي إلّا عند حلول الظهر. وفي عام ١٩١٨ صار ميلنر وزيراً للحربية اسماً وواقعاً. وكان يملك الخبرة التي يتطلبها منصبه، إذ انه كان قد تولى إدارة الجانب المدني لحرب البوير وها هو الآن، تحت رئاسة لويد جورج، يدير الجانب المدني للحرب العالمية الأولى.

كان ارتباط لويد جورج مع بطانة ميلنر ارتباطاً فكرياً وعملياً وبيروقراطياً. وكان رئيس الوزراء يحضر الاجتماعات التي تضم منتسبي الطاولة المستديرة لتبادل وجهات النظر. وفي منتصف عام ١٩١٧ أبدى هانكي ملاحظة بقوله إن «بين الأكثر نفوذاً في اللحظة الراهنة يأتي جماعة الطاولة المستديرة. إنهم يتناولون طعام العشاء كل يوم اثنين... وميلنر هو الزعيم الحقيقي لهذه الجماعة... أما لويد جورج فيحضر أحياناً لقاءاتهم»[١٣].

لقد كان التأثير متبادلاً. فبعد ذلك بوقت قصير قال هانكي ان ميلنر «قد تحول تحولاً كاملاً فأخذ بوجهة نظر لويد جورج القائلة بضرورة توجيه جهودنا الرئيسة ضد تركيا»[١٤].

(٣)

سقطت في فرنسا حكومات كثيرة خلال الحرب، ولكن الفوارق بين حكومة وأخرى لم تكن دراماتيكية. ثم تبدل ذلك في عام ١٩١٧.

لقد أدى تمرد الجيش الفرنسي في أيار (مايو) ١٩١٧ إلى سقوط آخر حكومة من حكومات فرنسا زمن الحرب كان السياسيون يرتاحون إليها. لقد لحق العار بالقيادة التقليدية. فحكومات فيفياني، وبريان، وريبو سمح لها بأن تستقيل، أما حكومة بول بانليفيه فلم يسمح لها بالاستقالة بل أسقطها البرلمان الفرنسي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧. ولم يكن هناك سوى شخص واحد يمكنه ان يكون رئيساً للوزراء ولو انه غير مجرب وإنما قادر ان يقاتل حتى النصر. هذا الرجل كان أكثر انسان مرهوباً ومكروهاً في الحياة العامة. وقد قال عنه لويد جورج «لم يبق سوى رجل واحد وليس من المبالغة القول ما من أحد يريده»[١٥]. كان هذا هو الرجل الذي فضح ممارسات الفساد التي ارتكبها زملاؤه السياسيون ـ وهم لم يغفروا له ذلك.

كان جورج كليمنصو، شأنه شأن لويد جورج، «وحيداً» سياسياً. وكان هو أيضاً راديكالياً، ولو

---

(١٣) رويسكيل، **هانكي**، الصفحتان ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(١٤) المرجع نفسه، ص ٤٣٦.

(١٥) المرجع نفسه، ص ٣٥٨.

ان هذه الصفة كان لها معنى مختلف في فرنسا. وهو مثل لويد جورج، كان حسب الاعتقاد السائد قد تخلى عن مقولاته اليسارية التي آمن بها في شبابه[١٦]. وعلى غرار لويد جورج كان هو أيضاً قد شجب دعاة الصلح على أساس حل وسط فوضع حداً للمحادثات الجارية في هذا المنحى والتي كان الألمان قد بدأوها بواسطة اريستيد بريان في عام ١٩١٧. حاسة سمعه كانت قد بدأت تضعف، وزاد وزنه. كان في السادسة والسبعين من عمره، ولكنه ظل المناضل الذي عرفه الناس طوال حياته. وقد شعر رئيس الجمهورية انه مضطر لتكليفه برئاسة الوزارة قائلاً عنه «هذا الانسان الشيطان يقف جميع الوطنيين إلى جانبه وإذا لم أكلفه فإن قوته الاسطورية ستجعل أية وزارة بديلة ضعيفة»[١٧].

كان كليمنصو قبل أي شيء آخر انساناً لا يعرف إلَّا الكراهية، وكراهيته الأشد موجهة إلى المانيا. فكان آخر من بقي على قيد الحياة من أعضاء الجمعية الوطنية التي احتجت في عام ١٨٧١ على شروط الصلح القاسية التي فرضتها المانيا على فرنسا المهزومة. ولم يستسلم أبداً. كان يرى دائماً انه يجب على فرنسا ان تركز على بناء قوتها ضد المانيا، ولذلك كان يرى ان من الخطأ تحويل جانب من هذه القوة لاستخدامها في مغامرات استعمارية. ولذلك رأى فيه أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب الذين كانوا يهدفون إلى ضم سوريا وفلسطين إلى فرنسا عدوهم الأكبر.

كانت فرنسا بين عامي ١٨٨١ و١٨٨٥، وبالرغم من احتجاجات كليمنصو، قد انطلقت نحو توسع استعماري جديد. وبذريعة ما. قامت أولاً بغزو تونس واحتلالها، ثم احتلت الدول التي أصبحت في ما بعد تشكل الهند الصينية. والحقيقة ان الزعيم الالماني الأمير اوتو فون بسمارك أيد، بل شجع، هذه المغامرات الفرنسية. وفي ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٤ قال كليمنصو مخاطباً مجلس النواب الفرنسي «ان بسمارك عدو خطر وهو ربما كان أشد خطراً كصديق. لقد دلنا على تونس فأوقعنا في نزاع مع انكلترا»[١٨].

لقد استنكر كليمنصو في البرلمان كما في جريدته «لا جوستيس» (أي العدالة) الاستيلاء على المستعمرات، لأنه كان يعتبر المستعمرات عبئاً مالياً وعسكرياً ويرى انها تصرف الانتباه عن مشكلة الحدود مع المانيا، كما كان يعتبر الاستيلاء على المستعمرات خطوة أوحى بها الالمان بذكاء، وكانوا يأملون من ورائها ان يدفعوا بفرنسا إلى الخصام مع بريطانيا. وهو في معارضته سياسة الاستعمار، كان يفضح الفساد المالي الذي يصاحب سياسة الاستعمار الفرنسية. إن حديث جريدته «لا جوستيس» عن الاستغلالات الشريرة في مسألة تونس، لم يكن بعيداً عن الواقع: فقد كانت هناك مضاربات بالعقارات، وبامتيازات السكك الحديدية وامتيازات الكابل

---

(١٦) تيودور زيلدين، **فرنسا ١٨٤٨ ـ ١٩٤٥**، المجلد ١، **الطموح والحب السياسة** (اوكسفورد. مطبعة كلاريندون، ١٩٧٣)، الصفحة ٦٩٨ وما يليها.

(١٧) ديفيد روبين وطسون، **جورج كليمنصو .. سيرة حياة سياسية** (لندن ايرميتوين، ١٩٧٤)، ص ٢٦٩.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٩٠.

البحري للاتصالات البرقية، بغض النظر عما قد يكون لهذه كلها من علاقة بصياغة سياسة الحكومة. وكان الفساد المالي الذي أحاط بمغامرة الهند الصينية أكثر بشاعة. وقد أدت الاتهامات التي وجهها كليمنصو والأمور التي فضحها، إلى تدمير لسمعة كثيرين وإلى سقوط حكومات، فأصبح يُعرف بلقب «محطم الآخرين» قبل ان يطلق عليه لقب «النمر».

كتب ونستون تشرشل في وقت لاحق عن الحياة البرلمانية الفرنسية في ذلك الزمن فقال: «إن الحياة في مجلس النواب الفرنسي محمومة وشرسة ومسمومة، وهي تجري عبر تتابع الفضائح وأعمال الاحتيال وحوادث التعريض واليمين الزور والقتل والمؤامرات والمكائد وطموحات وأعمال ثأر شخصية وأعمال غش وخداع، وهذه الأمور المتلاحقة لا مثيل لها معاصراً إلاّ في عالم العصابات في شيكاغو»[١٩]. لقد شق كليمنصو طريقه عبر هذه الأمور كلها في سورة غضب طاحنة. وعاش في زمن كانت لا تزال العادة فيه ان تسوى الخصومات في ساحة المبارزة وكان هو مبارزاً مرهوباً. أحد رؤساء مجلس النواب الفرنسي قال متهكماً على أعضاء المجلس الآخرين ان كليمنصو «يملك ثلاثة أشياء ترهبونها: سيفه، ومسدسه، ولسانه»[٢٠].

وخوفاً منه ترددت الحكومة الفرنسية عام ١٨٨٢ في الانضمام إلى بريطانيا في احتلال مصر، فكانت النتيجة ان استولت بريطانيا على مصر بكاملها. وكان أمراً سهلاً ان يصور خصومه معارضته للتوسع الاستعماري بأنها تصب في مصلحة الامبراطورية البريطانية ـ وقد صوّروها هكذا فعلاً. وكان هذا هو الخط الذي اتبعه خصومه كلما أصبح هو عرضة لحملة سياسية. وقد أقدموا على عملية تزوير لكي يثبتوا انه باع نفسه لبريطانيا، فاستؤجر بعض المشعوذين لكي يسيروا خلفه وهم يرددون الكلمتين الانكليزيتين: «أوه، يس» أي (آه، نعم)، ووزعت نسخ مجانية من جريدة تتضمن صورة كاريكاتورية تظهره وهو يلعب ألعاب خفية بأكياس من الجنيهات الاسترلينية[٢١]. وقد كتب أحد السياسيين البريطانيين البارزين عام ١٨٩٢ إلى سياسي بريطاني آخر يقول له: «كان هنا بالأمس رجل فرنسي وروى لي قصة ملفقة عجيبة يبدو انهم يصدقونها في باريس، المدينة التي يصدقون فيها أي شيء... ومفادها ان جريدة «لا جوستيس» التي يملكها كليمنصو والتي يقال إنها خاسرة إنما تموّلها انكلترة باسم كل من المانيا وانكلترة»[٢٢]. وفي عام ١٨٩٣ هزم كليمنصو عندما رشح نفسه لإعادة انتخابه وهكذا أُبعد عن الحياة البرلمانية مدة عشر سنوات.

كان هذا هو الرجل الذي لجأت إليه فرنسا اليائسة وهي في أحلك ساعاتها في عام ١٩١٧، والذي ما لبث ان فرض إرادته على حكومة بلاده. وقد أصبح هو أيضاً، مثل لويد جورج، شبه دكتاتور

---

(١٩) ونستون س. تشرشل، **المعاصرون العظام** (لندن: فونتانا، ١٩٥٩)، الصفحتان ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٢٠) وطسون، **كليمنصو**، ص ١٢٧.
(٢١) زيلدين، **فرنسا**، ص ٧٠٣.
(٢٢) وطسون، **كليمنصو**، ص ٢٨.

لزمن الحرب، مجسداً تصميماً شديداً على القتال حتى يتم سحق المانيا سحقاً كاملاً. وصادف انه أيضاً، شأنه شأن لويد جورج، حمل معه إلى الحكم وجهة نظر خاصة بشأن السياسة في الشرق الأوسط.

وقد استمر كرئيس للوزراء لا يضع أهدافاً اقليمية لفرنسا خارج أوروبا. وفي ما يخص مطالبة فرنسا التقليدية بسورية، التي وجدت انعكاساً لها في إتفاقية سايكس ـ بيكو، قال كليمنصو انه إذا استطاع لويد جورج ان يحصل لفرنسا على حق إقامة محمية هناك فلن يرفض ذلك، «لأن هذا سوف يسر بعض الرجعيين»، أما هو نفسه فلا يعطي الأمر أية أهمية[٢٣].

إن مجريات الحرب والسياسة قد جلبت إلى الحكم في بريطانيا أول رئيس وزراء يريد الاستيلاء على مناطق الشرق الأوسط، وجلبت إلى الحكم في فرنسا السياسي الفرنسي الوحيد العازف عن ذلك.

---

(٢٣) روسكيل، **هانكي**، ص ٤٦٦.

الفصل الثاني

خلع قيصر روسيا

(١)

كانت سلسلة ظروف غير محتملة الظهور هي التي جعلت فرنسا تحتشد وراء زعيم معارض للامبريالية الفرنسية في الشرق الأوسط، وكانت سلسلة ظروف أشد غرابة هي التي جعلت روسيا أيضاً تساق في الشهر نفسه خلف زعيم هو أيضاً ادعى انه معارض للامبرالية الروسية في المنطقة.

وإذا كان من شيء بدا واضحاً في مطلع عام ١٩١٧ فهو ان روسيا هي صاحبة الكفة الراجحة في حرب الشرق الأوسط ضد تركيا. إن هزيمة أنور الكارثية في أوائل عام ١٩١٥ في جبهة القوقاز تبعها الغزو الروسي الناجح لشرق الأناضول في عام ١٩١٦. وعزز الروس موقعهم الاستراتيجي بكسبهم السيادة على البحر الأسود، وبإنشائهم خطوطاً للسكة الحديدية من القوقاز إلى خط جبهتهم الجديدة في شرقي تركيا. وكان القائد الروسي، الدوق الكبير نقولا، يخطط للقيام بهجوم جديد فور اكتمال خطوط السكة الحديدية. وقد ذكر ضابط ركن الماني ملحق بالقوات المسلحة العثمانية، ان هجوم الدوق الكبير كان من شأنه «ان يؤدي إلى نصر تام وربما إلى اخراج تركيا من الحرب في صيف عام ١٩١٧»[1].

مع ذلك قال لويد جورج بعد انقضاء سنوات في بيان أمام مجلس العموم ان «انهيار روسيا يعود بكامله تقريباً» إلى الامبراطورية العثمانية[2]. والأساس الذي استند إليه لويد جورج في رأيه هذا، هو ان قادة تركيا الفتاة في القسطنطينية، بقطعهم الطريق على معظم صادرات روسيا

---

(١) **الموسوعة البريطانية**، الطبعة الثانية عشرة تحت عنوان، **الحملات التركية (١)**، مقالة كتبها الرائد فرانز كارل اندرس.

(٢) مقتبس في مقال: ي.ت. كورات، «كيف انزلقت تركيا إلى الحرب العالمية الأولى»، في ك. س. بورن ود. س. واط، دراسات في **التاريخ الدولي**، (لندن: لونغمان، ١٩٦٧)، الصفحات ٢٩١ ـ ٣١٥، عند الصفحة ٢٩٤.

وارداتها، قد حرموها ما يأتيها من أسلحة وعائدات مالية. أما الذين يخالفونه الرأي، فحجتهم أنه حتى لو بقيت طريق القسطنطينية التجارية مفتوحة، فإن روسيا زمن الحرب، بغياب ملاحيها عن أراضيهم والتحاقهم بالجيش، قلّ انتاجها من المواد الغذائية وهبط عن مستواه المعتاد، وبالتالي قلّ ما تنتجه للتصدير، كما ان حلفاءها شح ما لديهم من الذخائر فلا سبيل لإمدادها بها. ولكن كلا الرأيين يقودنا إلى الحقيقة التناقضية الظاهرة، ألا وهي ان انتصارات روسيا العسكرية على جبهة القوقاز كانت، بمعنى ما، غير ذات علاقة: لقد أصبحت الحرب الحقيقية سباقاً اقتصادياً واجتماعياً من أجل البقاء.

كان في مقدمة الذين فهموا هذه الحقيقة الصناعي الالماني فالتر راتيناو. وقد نظم هذا الصناعي في عام ١٩١٤ قسماً للمواد الأولية تابعاً لوزارة الحربية في برلين، مع ان الوزارة قابلته بالشك. ولذلك قدمت له سكرتيراً وغرفة صغيرة واحدة خلف مبنى الوزارة. وما ان حلّ عام ١٩١٨ حتى كان هذا القسم أكبر الوحدات في الوزارة، وصار يشغل عدة مجموعات من المباني وكاد يطغى على بقية الأقسام[٣]. وقد أدرك راتينا وببصيرته الثاقبة ان العمليات الحربية تمر بثورتها الصناعية وأصبحت مسألة تمويل ونقل وامداد على نطاق ضخم، وبالتالي فإنها تتطلب مركزية في توزيع المخصصات وفي التخطيط والرقابة على الاقتصاد بكامله.

وقد تعلم لويد جورج بطريقته البراغماتية ان يرى الأمور بالمنظار نفسه، فطبق اشتراكية الحرب على الاقتصاد البريطاني، الذي كان حتى ذلك الحين يقوم على المشاريع الفردية. وعندما أوجد وزارة الذخائر في فندق مصادر، لم تكن للوزارة هيئة موظفين البتة. ومع انتهاء الحرب كان عدد مستخدمي الوزارة قد بلغ ٦٥,٠٠٠ مستخدم، وكانت الوزارة تمارس الاشراف على أكثر من ثلاثة أرباع مليون عامل[٤]. وانضم إلى قوة اليد العاملة عمال جدد بينهم عدد كبير من النساء.

وفي روسيا، كما في المانيا وبريطانيا، أصيبت التبدلات الاجتماعية العنيفة والسريعة التي صاحبت الثورة الصناعية في زمن الحرب، بالاجهاد عند وصولها إلى بنية المجتمع، وأجهدت بالتالي الأعمدة والدعائم، التي لم يُراع في تصميمها أن تحمل وزناً ثقيلاً. حدثت تبدلات في الأخلاق، والسياسة وأنماط الاستخدام. وأنماط الاستثمار، وبنية الأسرة، والعادات الشخصية واللغة. ويمكن أخذ فكرة عن ضخامة التبدلات، من طول الدراسة التي أجرتها مؤسسة وقف كارنيجي وضمنتها مسحاً أعدته بعد الحرب، للتغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في واحد وعشرين بلداً: لقد جاء هذا المسح في مئة وخمسين مجلداً، وكانت المتعلقة ببريطانيا وحدها تقع في أربعة وعشرين مجلداً.

---

(٣) هارفي ا. دو ويرد، «تشرشل ولويد جورج وكليمنصو: انبثاق التمدن»، في كتاب: ادوارد ميد ايرل، **صانعو الاستراتيجية العصرية: الفكر العسكري عن مكيافيلي إلى هتلر** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٤٣)، الصفحات ٢٨٧ ـ ٣٠٥، عند الصفحتين ٢٩٠ ـ ٢٩١، وجيمس شوتويل، **القرار الكبير** (نيويورك: مكميلان، ١٩٤٤)، الصفحتان ٨ ـ ٩.

(٤) ا.ج. ب. تيلور، **التاريخ الانكليزي ١٩١٤ ـ ١٩٤٥** (اوكسفورد: مطبعة كلارندون، ١٩٦٥)، ص ٣٤.

ثبت ان روسيا القيصرية من بين الدول الأوروبية الرئيسة المتحاربة في الحرب العالمية الأولى، كانت الأقل قدرة على مواجهة هذه التحديات بسبب ضعفها في عناصر البنية التحتية ـ أنظمة النقل، أنظمة الاتصالات، الصناعات الهندسية، وأسواق رأس المال ـ هذه العناصر التي تصنع اقتصاداً عصرياً قادراً على التعافي وقابلاً للتكيف. ولكن عجز روسيا كان أكثر من أي شيء آخر عجزاً في القيادة.

إن عواقب تشديد قبضة تركيا على الدردنيل أكدت فقدان الروح الوطنية لدى بعض عناصر الطبقات الحاكمة وفقدان الكفاءة لدى العناصر الأخرى. فلم يكن هناك أي عذر للنقص الرهيب في المواد الغذائية في عام ١٩١٦ وعام ١٩١٧. كانت روسيا بطبيعتها بلداً غنياً في الزراعة: كان الفلاحون يمثلون ثمانين بالمئة من عدد السكان، وكانت الحبوب وحدها تؤلف نصف صادرات روسيا[٥]. ومع انه حدث هبوط في الانتاج الزراعي بسبب انتقال اليد العاملة إلى الجيش، كانت البلاد تنتج من المواد الغذائية أكثر من حاجتها[٦]. أما النقص فكان نتيجة الخلل في النقل والتوزيع، وهذا الخلل عائد في جانب منه إلى الاختناقات والانهيارات، ولكنه عائد أيضاً إلى مناورات متعمدة: المضاربات، والاستغلال لجني الأرباح، وتخزين السلع.

لقد أهملت حكومة القيصر واجبها باغفالها الحاجة إلى الضرب على أيدي المستغلين الذين زادوا حدة عواقب قطع تركيا طريق روسيا التجارية إلى الغرب. ولم تفلح الاضرابات التي انتشرت في المصانع وبوادر الفوضى المالية في جعل الحكومة تتخذ اجراء لمعالجة الوضع. ومع حلول عام ١٩١٧ كانت الفائدة الجارية والمبالغ المستحقة التسديد من الدين العام أكبر من مجموع ايرادات الدولة في عام ١٩١٦، وهذه الحالة من الاعسار المالي في البلد عالجتها الحكومة بطبع عملة ورقية، فارتفعت الأسعار خلال سنوات الحرب بنسبة ألف بالمئة[٧].

كان وضع نهاية للحرب هو أحد السبل الواضحة للخروج من الأزمة. وكانت الامبراطورية العثمانية والمانيا قد عرضتا على روسيا في عام ١٩١٥ حق المرور في الدردنيل إذا تخلت عن الحلفاء. واستمرت المانيا طوال عام ١٩١٦ في تقصي إمكانية عقد صلح منفصل مع روسيا. وقال بعض الناس ان العقبة كانت عدم استعداد قيصر روسيا للتخلي عن بولندا[٨]. بيد ان الوزير

---

(٥) شيلا فيتز باتريك، **الثورة الروسية** (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٨٢)، ص ١٠، وألك نوف، **تاريخ اقتصادي للاتحاد السوفياتي** (هارموندسورث: بنغوين، ١٩٨٢)، الصفحات ٢٠ ـ ٢٥، **والموسوعة البريطانية**، الطبعة الحادية عشرة تحت عنوان: **روسيا**.

(٦) هيو ستيون ـ ولسنون، **الامبراطورية الروسية ١٨٠١ ـ ١٩١٧** (اوكسفورد: مطبعة كلارندون، ١٩٦٧)، الصفحتان ٧٠٤ ـ ٧٠٥.

(٧) نورمان ستون، **الجبهة الشرقية ١٩١٤ ـ ١٩١٧** (لندن: هودر وستوتن، ١٩٧٥)، ص ٢٨٨، ومايكل كتيل، **الحلفاء والانهيار الروسي آذار ١٩١٧ ـ آذار ١٩١٨** (لندن: اندريه دويتش، ١٩١٨)، ص ٩٨.

(٨) غوردون ا. غريغ، **المانيا ١٨٦٦ ـ ١٩٤٥** (اوكسفورد ونيويورك: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٧٨)، ص ١٥٣.

الروسي المفوض لدى السويد أوضح للألمان ان روسيا «في رأيه الشخصي» ستضطر إلى متابعة الحـرب إلى جانب الحلفـاء حتى تتسلم «مفتاح البحر الأسود»: بعبارة أخرى القسطنطينية والدردنيـل[٩]. أما في ساحة القتال فكان جنود القيصر الجائعون المنهكون يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة، ولكن رد القيصر على المبادرات الالمانية أظهر ان القيصر نقولا الثاني ظل يعطي الأفضلية لطموحاته الامبراطورية ـ وفي المقام الأول، ربما، الاستيلاء على الدردنيل.

(٢)

إن تاريخ الثورات الروسية في عام ١٩١٧، الذي لا يزال يُكتب والذي يبقى إلى زمن غير محدود ذا صلة بالوضع العالمي، لا يقع في نطاق الدراسة الحالية. ولكن أحد جوانب هذا التاريخ هو موضع اهتمام هنا وسنتابعه في الصفحات التالية: مؤامرة تحسين حظوظ لينين الذي كان مجهولاً آنذاك، وقد حيكت خيوطها في الامبراطورية العثمانية.

خلال النهج الكارثي لاشتراك روسيا في الحرب الأوروبية، أظهر المشرفون على الحكومة والمال والصناعة في روسيا ان مصالحهم متباعدة عن مصالح السكان عامة. وفي أقصى يسار الحركة الثورية السرية المحظورة، كان شخص مغمور ومعزول قد قال مثل هذا الكلام ـ ولكن لأسباب نظرية من عنده ـ منذ لحظة بداية الحرب. وقد عاش هذا الشخص ودرس وكتب خلال الحرب في منفاه في زوريخ، سويسرا، وكان لا يملك شروى نقير. كان في منتصف الأربعينات من عمره ولم يكن معروفاً سوى لدى الشرطة والأوساط الثورية.

هذا الشخص هو فلاديمير ايليتش اوليانوف، وقد انتحل في عام ١٩٠١ اسماً مستعاراً هو لينين. وكان محامياً سابقاً نذر حياته للنظرية الماركسية والنزاعات الفئوية. وكان ممتلىء الجسم، قوي العضلات، له انحناءة كتفي مقاتل، وكان ذكياً حاد الطبع متوفزاً يسير غير هياب وراء طاغوت منطقه غير عابىء بالنتائج. لقد صدم عند نشوب الحرب إذ رأى زملاءه الاشتراكيين يتجمعون لتأييد بلدانهم، ان نظرية لينين أدت به إلى ان يكون وحيداً في معارضة الحرب وبالتالي معارضة بلاده، وإلى عزلتـه عن الآخرين. بل إن فئته السياسية، جماعة البلشفيك، لم تفهم آراءه في الحرب فهماً تاماً.

في بداية شهر أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ كتب مسوّدات أطروحاته السبع عن الحرب، وكتب فيها انه «من وجهة نظر الطبقة العاملة والجماهير الكادحة من جميع شعوب روسيا، أهون الشرين هو ان تلحق الهزيمة بالنظام الملكي القيصري وجيشه، الذي يقهر شعب بولندا وشعب أوكرانيا وعدداً من الشعوب الأخرى في روسيا». وندد في أطروحاته بالحكم الامبراطوري الذي يمارسه

---

(٩) اولريش ترومبينر، **المانيا والامبراطورية العثمانية ١٩١٤ ـ ١٩١٨** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٦٨)، ص ١٥٣.

الروس على الشعوب الأخرى التي يحكمها القيصر[١٠]. كان روسياً، ولكنه كان يرى من واجبه ان يهدف إلى هزيمة روسيا وتفتيت الامبراطورية الروسية.

كان يعيش في القسطنطينية في ذلك الحين زميل سابق للينين، زميل له في قيادة الأممية الاشتراكية الثانية، وكان هذا الزميل قد توصل هو أيضاً إلى استنتاجات مماثلة. إن الكسندر اسرائيل هيلفاند، الذي انتحل اسماً مستعاراً هو «بارفوس» كان يهودياً روسياً هدفه السياسي الذي يسعى إليه هو تدمير امبراطورية القيصر[١١]. وبينما كان لينين يتخذ فقط موقف اللامبالاة من احتمال انتصار المانيا، كان هيلفاند شديد الحماسة لانتصارها. وقد صادف ان كان هيلفاند يملك المال وله اتصالات سياسية مكنته من متابعة ميوله نحو المانيا.

كان بارفوس من جيل لينين (ولد هيلفاند عام ١٨٦٩ ولينين عام ١٨٧٠) وكان أحد الشخصيات الفكرية القيادية في الجناح اليساري للحركة الاشتراكية الثورية. وقد غادر روسيا إلى المانيا في مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر، وصار له اسم بصفته منظماً وصحفياً مناضلاً إلى جانب روزا لوكسمبورغ، اليهودية الالمانية البولندية المولد، من أجل موقف ثوري محض. وفي السنوات الأولى من القرن العشرين أصبح هو موجه ليون تروتسكي، ثم انه في عام ١٩٠٥ أوجد ما أصبح يسمى نظرية تروتسكي عن «الثورة الدائمة». ولدى عودته إلى روسيا أبعد إلى سيبيريا ولكنه ما لبث ان هرب إلى أوروبا الغربية.

غير ان شخصية هيلفاند / بارفوس كان لها جانب آخر أخذ يظهر تدريجاً: كان داعية يعمل في الظل وكان رفاقه المثاليون يرتابون في انه يجني ثروة لنفسه. فقد سبق له ان انشأ دور نشر القصد منها خدمة القضية الثورية، ولكن ظهر انها تخدم مصالحه الشخصية بصورة أفضل. وكان لدى لينين وجماعته من البلشفيك من الأسباب ما يحملهم على الاعتقاد بأن بارفوس ابتز في عام ١٩٠٤ مبلغ ١٣٠,٠٠٠ مارك(*) (نحو ٣٠,٠٠٠ دولار) من عائدات أعمال أدبية كان الأديب مكسيم غوركي قد تبرع بها للحزب الديمقراطي الاشتراكي. وقد جابهوه بالأمر فكانت تفسيراته غير مقنعة.

ثم انه تخلى عن نشاطاته الثورية وعن أعمال دور النشر واتجه بكليته إلى أعمال تجارية متنوعة، وانتقل عبر فيينا إلى دول البلقان والامبراطورية العثمانية حيث أبدى اهتماماً بحركة تركيا الفتاة

---

(١٠) برترام د. وولف، **الثلاثة الذين قاموا بثورة: تاريخ سيرة حياة**، الطبعة الرابعة منقحة (نيويورك: دل، كتب دلتا، ١٩٦٥)، الصفحة ٦٢٠ وما يليها. وادموند ويلسون، **إلى محطة فنلندا: دراسة في كتابة التاريخ وفعله** (غاردن سيتي، نيويورك: كتب دبل واي انكور، ١٩٥٣)، الصفحة ٤٤٥ وما يليها.

(١١) الرواية التي ترد مستندة إلى ز.أ.ب.زيمان و. ب. شارلو، **تاجر الثورة: حياة الكسندر اسرائيل هلفاند (بارفوس) ١٨٦٧ ـ ١٩٢٤** (لندن: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٦٥)، وإلى الوثائق السرية المستمدة من المحفوظات الالمانية منسوخة في كتاب: ز. ا. ب. زيمان، **المانيا والثورة في روسيا ١٩١٥ ـ ١٩١٨** (لندن: مطبعة جامعة اوكسفورد، ١٩٥٨).

(*) هنالك خلاف حول الرقم الحقيقي.

وأخذ يتاجر بالحبوب وسلع أخرى. ومع حلول عام ١٩١٢ كان قد أنشأ صلة وثيقة مع مسؤولي حكومة حزب تركيا الفتاة، وحصل بمساعدتهم على عقود لتأمين الامدادات للجيوش العثمانية في حروب البلقان.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى في أوروبا، نشر هيلفاند مقالة في الصحف التركية قال فيها، ناصحاً الحكومة العثمانية، ان مصلحتها تتحقق بانتصار المانيا. وعمل أيضاً على اثارة الشعور الموالي لالمانيا في بلدان البلقان. وعندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب ساعد الباب العالي في الحصول على تموينات حيوية من القمح والآلات اللازمة للسكك الحديدية، وكان ذلك بطبيعة الحال على أساس ضمان أرباح لنفسه. كما انه قدم النصح إلى الحكومة العثمانية بشأن مختلف أوجه تعبئة اقتصادها للمجهود الحربي. كان هدفه تدمير حكومة روسيا، وصار منزله في القسطنطينية ملتقى المتآمرين على القيصر.

وقد تمكن عبر معارفه من ترتيب لقاء بينه وبين السفير الالماني في الامبراطورية العثمانية، فاجتمع بالسفير فون فانغينهايم بتاريخ ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ وقال له: «إن مصالح الحكومة الالمانية متطابقة مع مصالح الثوريين الروس»[١٢]. وبعد يومين أبرق السفير الالماني بتقرير عن الاجتماع إلى وزارة الخارجية الالمانية وذكر في تقريره ان هيلفاند أبلغه «ان الديمقراطيين الروس لا يستطيعون تحقيق هدفهم إلّا عن طريق تدمير النظام القيصري الروسي تدميراً تاماً وتقسيم روسيا إلى دول أصغر»[١٣]. واقترح هيلفاند ان تساعده المانيا في توحيد الثوريين بتنفيذ برنامج هدفه تقويض الامبراطورية الروسية.

أبدت الحكومة الالمانية على مستوى رفيع اهتماماً باقتراحه. وفي نهاية شباط (فبراير) ١٩١٥ توجه هيلفاند إلى برلين لمقابلة مسؤولين في وزارة الخارجية، فطلبوا إليه ان يضع اقتراحه خطياً. وجواباً عن ذلك قدم إليهم في التاسع من آذار (مارس) مذكرة تتضمن خطة واسعة لتقويض روسيا القيصرية عن طريق تشجيع الثوريين الاشتراكيين والقوميين. وقد تحدث إلى الالمان عن لينين وعن جماعته من البلشفيك وقال لهم ان لينين وبعض أتباعه موجودون في سويسرا وخصهم بالذكر باعتبارهم جديرين بالدعم الالماني. بحث هيلفاند عن لينين فوجده وعرفه إلى الالمان.

لقد وافق القادة الالمان على تبني اقتراحات هيلفاند وسلموه في نهاية آذار (مارس) دفعة أولى قيمتها مليون مارك (أي ما يعادل في ذلك الحين نحو ٢٤٠,٠٠٠ دولار أميركي) لبدء العمل في محاولة توحيد مختلف الجماعات الثورية.

قوبلت مفاتحاته الأولى مع رفاقه السابقين بالصدود. بل ان روزا لوكسمبورغ عندما التقته في برلين لم تعطه فرصة للكلام وطلبت إليه الانصراف. وقد اعترف ليف دافيدوفيتش برونشتاين الذي سمى نفسه تروتسكي، بأن بارفوس كان في وقت من الأوقات شخصية هامة، وصديقاً

---

(١٢) زيمان وشارلو، **تاجر الثورة**، ص ١٣٦.

(١٣) زيمان، **المانيا**، ص ١.

ومعلماً، ولكنه تبدل في عام ١٩١٤ وأصبح الآن «في حكم الميت سياسياً»[١٤]. وقد وصف أحد زملاء بارفوس السابقين من الثوريين الاشتراكيين موقف هؤلاء من بارفوس فقال انهم يعتبرونه «مخبراً روسياً، ووغداً، وخائناً للثقة... وهو الآن عميل تركي ومضارب في التجارة»[١٥].

في ربيع ذلك العام قام بأهم محاولاته فذهب إلى زوريخ وأقام في فندق بور او لاك الفخم، وأخذ يعيش عيشة الفخفخة فيشرب كل صباح عند تناوله طعام الافطار زجاجة من الشمبانيا، ويدخن عدداً من السيجار ذي الحجم الكبير ويحيط نفسه بنساء عليهن مسحة الثروة[١٦]. كما انه بدأ بتوزيع المال على الفقراء من المنفيين وأقنعهم بأنه أصبح آمر الصرف في الثورة.

وفي نهاية أيار (مايو) سعى لمقابلة لينين في المطعم الذي كان يرتاده عادة واتجه نحو الطاولة التي كان يجلس إليها لينين وجماعته لتناول الغداء فتحدث إليهم وصحبهم عندما عادوا إلى الشقة التي يقطنها لينين. وهناك شرح هيلفاند مهمته. وبعد ان أصغى لينين إليه اتهمه بأنه تحول إلى «شوفيني» الماني وأمره بأن ينصرف وألا يعود اطلاقاً[١٧].

مع ذلك انصرف أحد أصدقاء لينين مع هيلفاند للشروع في وضع الخطة التخريبية موضع التنفيذ. واتفقا على ان تكون استوكهلم قاعدة لعملياتهم. وقد استطاع لينين عن طريق صديقه ان يطلع على التطورات عند حدوثها. علاوة على ذلك قبل لينين والحزب البلشفيكي مالاً قدمه هيلفاند عن طريق بولندي وروسي عضوين في الحزب الديمقراطي الاجتماعي. لقد أنكر لينين في ما بعد حدوث ذلك، ولكن مراسلاته تبين ان انكاره لم يكن صحيحاً[١٨].

كان العمل التجاري الذي تظاهر هيلفاند بأنه يمارسه هو إدارة شركة تجارية. وفي الواقع عادت عليه نشاطات الشركة بثروة هائلة. فقد كان سراً ينظم العملية التخريبية ويصدر جريدة ثورية تمولها الحكومة الالمانية. ولم تحقق الجريدة نجاحاً كبيراً. وحاول ان ينظم اضراباً عاماً في روسيا حتى من دون مساعدة لينين والآخرين، فحقق في ذلك نجاحاً أكبر. صحيح ان الاضراب العام لم يحدث، غير ان هيلفاند أنزل نحو ٤٥,٠٠٠ شخص إلى شوارع بيتروغراد (وقد أصبحت العاصمة الروسية سانت بيترسبورغ تسمى بهذا الاسم منذ عام ١٩١٤) لكي يعلنوا احتجاجهم على الحكومة.

غير ان هيلفاند ركّز انتباه الحكومة الالمانية على أهمية لينين الخاصة باعتباره قوة مدمرة، فاتخذ الالمان عن طريق عملاء آخرين ترتيباً لرعاية المنظّر البلشفيكي وإقراضه مبالغ اضافية من المال

---

(١٤) زيمان وشارلو، **تاجر الثورة**، ص ١٥٥.

(١٥) المرجع نفسه، ص ١٥٤.

(١٦) المرجع نفسه، الصفحتان ١٥٦ ـ ١٥٧.

(١٧) المرجع نفسه، ص ١٥٨.

(١٨) ليونارد شابيرو، **الثورات الروسية في عام ١٩١٧: اصول الشيوعية الحديثة** (نيويورك، الكتب الأساس (بيزيك بوكس)، ١٩٨٤)، ص ٩٥.

كلما احتاج دون ان تكون هناك ضرورة لأن يفصح عن مصدر المال.

وهكـذا أدخل هيلفاند، صديق جماعة تركيا الفتاة الحميم الذي كان يتخذ من القسطنطينية قاعدة لنشاطه، سلاحاً جديداً وغريباً تستطيع به المانيا، حليفة تركيا، ان تحاول تحطيم العدو المشترك روسيا.

(٣)

كانت مدينة بيتروغراد تبعد مسافة طويلة عن اهراءات القمح في الجنوب، وسكانها يعانون من نقص المواد الغذائية وتصاعد أسعار هذه المواد طوال عامي ١٩١٦ و١٩١٧. وفي ذلك الزمن أصبحت الاضرابات والاحتجاجات إحدى طرق الحياة: وقد كان عدد الاضرابات التي حدثت بين منتصف عام ١٩١٥ وشباط (فبراير) ١٩١٧، ومن ضمنها تلك التي حرض عليها هيلفاند، ١١٦٣ اضراباً[١٩]. وأكثر من نصف هذه الاضرابات كان الدافع إليها سياسياً أكثر مما كان اقتصادياً، مما يبين ان الثورة على النظام كانت قد بدأت تتجاوز مسألة نقص المواد الغذائية.

قامت مظاهرات يوم ٨ آذار (مارس) ١٩١٧ احتفاءً بيوم المرأة الدولي. وانضمت إلى المظاهرة ربات المنازل احتجاجاً على نقص المواد الغذائية، كما انضم إليها عدد كبير من نحو ٩٠,٠٠٠ عامل كانوا مضربين عن العمل في نحو خمسين مصنعاً. وفي اليوم التالي بلغ عدد المضربين نحو ٢٠٠,٠٠٠، وفي اليوم الذي تلاه صار الاضراب عاماً. وبعد ذلك بيومين انضم جنود أربع كتائب إلى الشعب مما عزز موقف المتظاهرين في مواجهة الشرطة التي كان يزداد عجزها. وكان تمرد الجيش حاسماً لسبب وحيد هو ان الحكومة الفعالة كانت قد تلاشت منذ وقت طويل. وقد أمر حاكم المدينة بإلصاق إعلانات فرض الأحكام العرفية على الجدران ولكن لم تكن هناك مادة لاصقة[٢٠].

في ١٥ آذار (مارس) تنازل القيصر نقولا الثاني عن العرش اعتباراً من اليوم التالي لمصلحة أخيه الدوق الكبير ميخائيل، ولكن هذا امتنع عن الجلوس على العرش، فأصبحت روسيا جمهورية تحكمها حكومة مؤقتة كانت في البداية برئاسة الأمير لغوف ثم برئاسة الكسندر كيرينسكي.

لقد فوجيء السياسيون من كل اتجاهات الرأي عندما ظهر لهم ان سكان بيتروغراد كانوا في الواقع يدفعون أمامهم باباً مفتوحاً. وقد كتب أحد كبار المؤرخين عن هذه الأحداث فقال: «لم تقم الأحزاب الثورية بأي دور مباشر في صنع الثورة، بل لم تكن تتوقع الثورة»[٢١]. هل كانت أحداث بيتروغراد إذن من ثمار المؤامرة التي ولدت في ذهن بارفوس، شريك جماعة تركيا الفتاة؟ لقد لعب هيلفاند وهيئة الأركان العامة الالمانية، عن طريق عملائهم ومبالغ الذهب التي قدموها،

(١٩) كتيل، **الانهيار الروسي**، الصفحات ١٣ ـ ٣٥.

(٢٠) نورمان ستون، **تحول أوروبا** ١٨٧٨ ـ ١٩١٩ (لندن: فونتانا، ١٩٨٣)، ص ٣٧١.

(٢١) ادوارد هاليت كار، **الثورة البلشفية** ١٩١٧ ـ ١٩٢٣، المجلد ١ (نيويورك: مكميلان، ١٩٥١)، ص ٧٠.

دوراً في تحريض الروس على الاضراب والتمرد، ولكن بالتأكيد ليس إلى الحد الذي بدا للمخابرات البريطانية، بل انه لم يكن واضحاً أول الأمر هل تساعدهم الاطاحة بالقيصر على تحقيق هدفهم الذي هو هزيمة روسيا. وقد كانت جميع الأحزاب السياسية، ومن ضمنها البلشفيك، تحبذ في ذلك الوقت انهاء الحرب. أما الآن وقد ذهبت الحكومة التي كانوا يكرهونها، أرادوا كوطنيين روس ان يهزموا اعداءهم الالمان والاتراك.

ولكن لينين، وهذا ما فهمه هيلفاند وحده، كانت له قناعة مختلفة ـ وكان يشعر بالاحباط. فهو في زوريخ، ومعزول عن المشاركة في الأحداث الكبرى التي تقع في روسيا. واتباعه في بيتروغراد اخطأوا في فهم ما يريده منهم. وقد توقع هيلفاند رد فعل المنظّر البلشفيكي، فشرع، دون طلب من لينين، في اتخاذ ترتيبات بالتعاون مع هيئة الأركان العامة الالمانية، لوضع قطار في تصرف لينين لكي ينقله مع أقرب المقربين إليه سياسياً، غريغوري زينوفييف، إلى بيتروغراد. ولما وجّه هيلفاند الدعوة إلى لينين رفضها لينين بدافع من الحيطة والحذر وحاول ان يتخذ ترتيبات لا دخل لهيلفاند بها. ثم انه وضع شروطاً: السماح لعدد يتروواح بين عشرين وستين من المنفيين الروس بالصعود إلى القطار من دون اي اعتبار لوجهات نظرهم في الحرب، وان يكون للقطار حق المرور في أراضي دول أخرى. وقد أبرق الوزير الالماني المفوض في بيرن إلى وزارة الخارجية الالمانية ليبلغها ان لينين وزينوفييف «يعتقدان انهما، بهذه الطريقة، يضمنان عدم تعرضهما للتأثير عليهما في روسيا»[٢٢]. وتفهمت الحكومة الالمانية فوافقت، وفي نيسان (ابريل) ١٩١٧ انطلق لينين بقطاره المغلق إلى روسيا.

ومنذ لحظة وصوله إلى محطة فنلندا في بيتروغراد، وبعد عبارات التحية اللاذعة التي وجهها إلى مستقبليه والتي كانت جزءاً من طبعه، شرع لينين في تركيز جماعته من البلشفيك ـ حسبما توقع هيلفاند ـ في وضع الجماعة الوحيدة المنادية بانهاء الحرب فوراً. وكان أتباعه يعتقدون ان من واجبهم ان يساندوا بلادهم بعد ان أصبحت فيها حكومة جمهورية من اليسار السياسي. ولكنهم كانـوا مخـطئين في نظر لينين. فقد كان يرى ان الحرب أظهرت ان الرأسمالية دخلت مرحلة الامبريالية، وان الامبريالية هي المرحلة النهائية، ولذلك كانت هذه المرحلة هي الزمن الصح لكي تقوم الأحزاب الاشتراكية في جميع أنحاء أوروبا بثورات في بلدانها، إذ ليس ذلك وقت شن حرب دولية، وخصوصاً بالتحالف مع حكومات مثل حكومتي بريطانيا وفرنسا اللتين يجب الاطاحة بهما. وفي خريف عام ١٩١٧، عندما تولى لينين السلطة في بيتروغراد ـ بمساعدة مبالغ اضافية من الدعم المالي من المانيا ـ وأعلن نفسه دكتاتوراً على ما تبقى من الدولة الروسية المحطمة، بادر فوراً إلى اخراج بلاده من الحرب. وقد قبل الهزيمة في آذار (مارس) ١٩١٨ بموافقته على معاهدة صلح استجابت لشروط المانيا. وبدا ان هيلفاند قدم لأصدقائه في القسطنطينية وبرلين خدمة جيدة، إذ ان دعم لينين، حسبما هو متوقع، ساعد على إخراج روسيا من الحرب.

(٢٢) زيمان، **المانيا**، الصفحتان ٣٥ ـ ٣٦.

(٤)

ذهـل المراقبون البريطانيون وهم يتابعون الثورات الروسية في عام ١٩١٧ من جراء الترابط الظاهر بين البلشفيك والألمان واليهود. كان كثيرون من القادة البلشفيك من أصل يهودي. وهكذا كان أيضاً هيلفاند، الذي وفّر لهم المال والتأييد الالمانيين، والذي كان قد جاء من القسطنطينية وكان ذا صلة وثيقة بحزب تركيا الفتاة. وكانت عقيدة المسؤولين البريطانيين لمدة طويلة ان حزب تركيا الفتاة واقع تحت اشراف الماسونيين اليهود الذين جعلوا الامبراطورية العثمانية تتحالف مع المانيا، وكان الاعتقاد البريطاني الراسخ ان ثمة علاقة وثيقة بين اليهود والالمان. كانت هذه الأمور كلها تبدو متكاملة.

ان جون بوتشان، الروائي ذا الشعبية والمدافع عن الامبريالية، والذي سبق ان عمل سكرتيراً خاصاً للورد ميلنر في جنوب افريقيا ثم أصبح، بتوصية من ميلنر، مدير الخدمات الاعلامية في حكومة لويد جورج، قد عبّر عن وجهة النظر هذه في الفصل الأول من روايته الكلاسيكية المثيرة «الخطوات التسع والثلاثون» في عام ١٩١٥:

«بعيداً وراء كل الحكومات والجيوش هنالك حركة سرية جارية، دبّرها شعب خطر جداً... ان هذا يفسر أشياء كثيرة... أشياء حدثت في البلقان، وكيف صعدت دولة ما فجأة إلى القمة، وكيف قامت تحالفات وانهارت، ولماذا اختفى رجال معينون، ومن أين جاءت مصادر القوة للحرب. إن هدف المؤامرة كلها هو الايقاع بين روسيا والمانيا وجعلهما في حالة خصام. اليهودي وراء ذلك، واليهودي يكره روسيا أكثر من كرهه الجحيم... هذا هو الثأر للمذابح. إن اليهودي في كل مكان، وله عين كعين الحية ذات الأجراس... إنه الرجل الذي يحكم العالم الآن، وهو يغمد مديته في جسم امبراطورية القيصر».

وهكذا لم تعد النظرة إلى البلشفيك انهم روس ولا حتى انهم متطرفون عقائديون، بل صارت النظرة إليهم انهم عملاء سريون للعدو أوجدهم الألمان الذين كانوا يؤدون عمل اليهود الذين بدورهم نذروا أنفسهم للثأر من روسيا بتدميرها. وظل المسؤولون البريطانيون يعتقدون في عام ١٩١٧ وسنـين عديـدة بعدها، ان البلشفيك لم يكونوا طرفاً رئيساً بذاتهم أو ببرنامجهم أو بأهـدافهم بل كانوا أجراء لدى هيئة الأركان العامة الالمانية يتلقون أوامرهم من اليهود ومن البروسيين في برلين.

كانت امكانية انهيار روسيا كابوساً أقلق بريطانيا منذ عام ١٩١٤، بقدر ما كان حلماً يتمنى أنور باشا تحقيقه ـ حلماً أوحى إليه ان تدخل الامبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب دول وسط أوروبا. وقد حوّلت الثورة البلشفية كابوس بريطانيا وحلم أنور باشا إلى واقع. وما زال هناك خلاف بين الدارسين للأحداث في رواياتهم لكيفية حدوث الثورة، ولكن الأمر الذي لا يقبل الشك هو ان خروج روسيا من الحرب عام ١٩١٧ كان ضربة قاسية لبريطانيا وحلفائها ونصراً هائلاً ليس لالمانيا فحسب، بل لتركيا العثمانية أيضاً.

(٥)

كان ونستون تشرشل قد قال خلال مغامرة غاليبولي: «هذه واحدة من أعظم الحملات العسكرية في التاريخ. فكروا بما تمثله القسطنطينية شرقاً. إنها أهم من لندن وباريس وبرلين مجتمعة في مدينة واحدة غرباً. فكروا بسيطرتها على الشرق. وفكروا بما سيعنيه سقوطها»[٢٣].

مع ذلك فإن سقوطها ـ الذي بدا في نظر تشرشل وشيكاً في آذار (مارس) ١٩١٥ ـ ظل هدفاً مراوغاً. فبعد اخفاق الحلفاء في اكتساح القسطنطينية في عام ١٩١٥، جاء دور الروس الذين حققوا نجاحات في أرمينيا التركية عام ١٩١٦ وكانوا يتهيئون للزحف على القسطنطينية في عام ١٩١٧، ثم جاءت الثورات في بيتروغراد، وهكذا تخلت الجيوش الروسية المرابطة على الأرض التركية عن فكرة شن هجوم اعتقاداً منها ان الحرب مقبلة على نهايتها.

في ذلك الحين كان الانهاك قد أصاب الأتراك إلى حد انهم لم يستغلوا الموقف بشن هجوم على الروس. ولكن خصومهم كانوا منهكين أيضاً: منهكين إلى حد التفكير بالتخلي عن الأهداف الطموحة كهدف الاستيلاء على القسطنطينية. وفي عام ١٩١٧ داعبت ميلنر، وربما لويد جورج أيضاً، فكرة التوصل إلى تفاهم مع المانيا، يتم بموجبه تقاسم الامبراطورية الروسية بدلاً من الامبراطورية العثمانية كغنائم النصر[٢٤].

لقد صمدت الأمبراطورية العثمانية في مواجهة كل الظروف المعاكسة، وقد تم اسقاط سائر الحكومات التي أدخلت الدول الكبرى الحليفة الحرب ضد تركيا ـ حكومة اسكويث في بريطانيا، وحكومة رينه فيفياني في فرنسا، والقيصر ووزيره سازانوف في روسيا. وبشكل ما، كان نجاح تركيا في الدفاع عن الدردنيل وراء اسقاط هذه الحكومات. ومع انه بدا أول الأمر ان أنور وطلعت أقدما على عمل جنوني طائش بإدخالهما الامبراطورية العثمانية المضعضعة الحرب، فقد صمدت بلادهم. لقد خسرا بعض الأراضي ولكن بدا انهما مقبلان على كسب بعض الأراضي، وفي نهاية عام ١٩١٧ كانا يتمتعان بالسلطة في الباب العالي أكثر مما تمتعا بها في أي وقت سابق. ولم يعودا يشعران بحاجة إلى التستر بالمكانة المحترمة للأمير سعيد حليم، فسمحا له في نهاية الأمر بأن يستقيل من رئاسة الوزارة. وبكل جرأة انتحل طلعت بك، الذي عين نفسه زعيماً للحزب، لقب رئيس الوزراء وأخذ زمام الأمور بيديه غير الارستقراطيتين.

ومع ذلك كانت الطريق أمام طلعت وأنور محفوفة بالمخاطر. زال الخطر الروسي، لكن التهديد البريطاني تجدد. وعدوهما، رئيس وزراء بريطانيا الجديد، كان دائم الحركة وقائداً نابغة للحرب. ومع ان لويد جورج كان مستعداً لاستكشاف إمكانية صلح يقوم على حل وسط مع حزب تركيا الفتاة، فقد كان مقاتلاً ـ وهواه في القتال كان موجهاً نحو تدمير الامبراطورية التركية.

---

(٢٣) **مفكرة اللورد ريدل في الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨** (لندن: ايفور نيكولسون ووطسون، ١٩٣٣)، ص ٨٢.

(٢٤) تيلور، **التاريخ الانكليزي**، الصفحتان ٩٤ ـ ٩٥.

الجزء السادس

العوالم الجديدة
والأراضي الموعودة

الفصل الاول

العالم الجديد

(١)

في الفترة ١٩١٦ ـ ١٩١٧ ألقت الولايات المتحدة بظلها أول ما ألقته على طموحات لويد جورج الامبراطورية في الشرق الأوسط.

ومع حلول الربع الأخير من عام ١٩١٦ أصبح اعتماد الحلفاء على الولايات المتحدة غير مقتصر على الامدادات، فحسب، بل على التمويل أيضاً، فقد كان يزداد عجز الحلفاء المالي، وقال الاقتصادي جون مينارد كينز، متحدثاً باسم الخزينة البريطانية في بيان أمام مجلس الوزراء انه مع نهاية العام «ستكون السلطة التنفيذية الأميركية والشعب الأميركي في وضع لإملاء إراداتهما على هذه البلاد»[١]. وقد أكد الرئيس وودرو ويلسون هذا الأمر عندما تدخل لدى ج. ب. مورغان بشأن تمويله بريطانيا في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ ـ وأظهر بذلك انه قادر على تدمير سوق القروض للحلفاء في الولايات المتحدة، وبذلك يسوق بريطانيا وفرنسا إلى العجز عن سداد التزاماتهما المالية[٢].

كان الحلفاء غير واثقين بنيات ويلسون. والحقيقة انه كان معارضاً لطموحات الحلفاء الامبريالية وكان عازماً على افشالها، فقد قال «وجهات نظر انكلترا وفرنسا في السلام ليست مماثلة لوجهة نظرنا» واقترح «ارغامهما على الأخذ بنهج تفكيرنا»[٣]. وكان لا بد للتضارب بين أهدافه وأهدافهما ـ في الشرق الأوسط كما في مناطق أخرى ـ من ان يفرض شكل السياسة في السنين

---

(١) ارثور س. لينك، **ولسون، حملات من أجل التقدمية والسلام، ١٩١٦ ـ ١٩١٧** (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، ١٩٦٥)، الصفحتان ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) المرجع نفسه، الصفحات ٢٠١ ـ ٢٠٣.

(٣) تشارلز سيمور، **أوراق الكولونيل هاوس الشديدة الخصوصية**، المجلد ٣ (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٢٨)، ص ٥١.

اللاحقة. ولذلك فإن دخول أميركا ويلسون المسرح العالمي، كان يخلق أخطاراً مثلما كان يفتح فرصاً أمام لويد جورج.

لم يكن من السهل على بريطانيا وفرنسا ان تفهما ويلسون وشخصيته الشعبية. فهو حفيد راعي كنيسة وابن قس من الكنيسة المشيخية. وقد درس ويلسون الحقوق ونظام الحكومة وأصبح استاذاً ثم رئيساً لجامعة برنستون، فحاكماً لولاية نيوجرسي، وانتهى به الأمر رئيساً للولايات المتحدة. ولكنه بخلقه، وتفكيره، وبطبعه لم يكن محامياً، ولا استاذاً ولا سياسياً بقدر ما كان كوالده وجده مختصاً بالعلوم الدينية[٤]. كان هدفه ان يجتذب الآخرين إلى رأيه أو ـ إذا أخفق ـ ان يهزمهم لا ان يشتريهم. إن السياسي يعتز مهنياً بتحقيق الحلول الوسط، أما ويلسون ـ الذي كان عازفاً عن الظهور بمظهر السياسي ـ فكان يفخر بتجنب الحلول الوسط.

كان رجلاً سامي التفكير، والأخلاق والمبادىء، وكثيراً ما كان ينظر إلى المسائل الأخلاقية التي لا ينظر إليها الآخرون عند حدوث خصام. وكثيراً ما ألهم الآخرين مشاطرته وجهة نظره. لقد كان، وما يزال شخصية مثيرة للجدل: فهذا الرئيس الاستاذ، الأنيق في لباسه، والذي يضع نظارة على عينيه والمحب للعزلة، والذي يبدو مظهره للمعجبين به مظهر انسان شديد الزهد والتنسك، ويبدو للآخرين متجهماً مدّعياً الاستقامة. كان شخصية معقدة متحذلقة.

كان الحلفاء يخطئون أحياناً في تفسير كلام الرئيس ويلسون وأعماله، فيرون فيها كلاماً وأعمالاً للتظاهر من أجل غايات سياسية داخلية، وعجزوا عن تقدير صدق رغبته في إبقاء الولايات المتحدة خارج الحرب ـ وفي ابقائهم خارج المستعمرات الجديدة التي عزموا على إيجادها لأنفسهم في مناطق كالشرق الأوسط. وهكذا فإنهم اخطأوا في فهم محاولة ويلسون التوسط لوضع نهاية للحرب ـ وهي مهمة أخذها على عاتقه بطلب من المستشار الالماني في نهاية عام ١٩١٦.

كان بيثمان هولفيغ، الرجل المدني الذي شغل منصب مستشار المانيا، والذي أبدى على مدى شهور رغبة في التوصل إلى تسوية عبر التفاوض، قد وجّه مذكرة إلى الولايات المتحدة بتاريخ ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ عبّر فيها عن استعداده لإجراء محادثات صلح. ولم يتمكن بيثمان، لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية، ان يجعل المذكرة أكثر تحديداً. ولكن ويلسون مضى قدماً فخرج بنغمة سلام من عنده بتاريخ ١٨ كانون الأول (ديسمبر)، طالباً إلى الحلفاء ان يحددوا أهدافهم في الحرب على أمل تضييق شقة الخلافات بين الجانبين.

كان لويد جورج قد تولّى لتوه رئاسة الوزارة، واعتقد هو والفرنسيون ان ويلسون كان حقيقة الأمر يطلب إليهم وضع برنامج تدخل الولايات المتحدة الحرب على أساسه ـ وهذا ما فهموه من وزير خارجية الولايات المتحدة روبرت لانسنغ. ذلك ان لانسنغ، الذي كان من أنصار التدخل في الحرب، كان في الواقع يسيء إلى سياسة رئيسه السلمية عن طريق إيحائه للحلفاء بما يجب

(٤) جون مينارد كينز، **عواقب السلام الاقتصادية** (نيويورك: هاركورت وبريس وهاد، ١٩٢٠)، ص ٤٢.

ان يكون مضمون ردهم. وقد انصاع له الحلفاء، فحددوا أهدافهم بعبارات كاسحة، من ضمنها ـ «تحرير الشعوب التي تعيش الآن تحت طغيان الأتراك المدمر، وطرد الامبراطورية العثمانية من أوروبا بعد ان أثبتت انها غريبة جذرياً عن الحضارة الغربية»[٥]. لم يكن هذا اقتراح سلام بل صرخة حرب، فمن الواضح ان الامبراطورية العثمانية ما كانت لتفاوض على هذا الأساس من أجل صلح يستند إلى حل وسط. كان ذلك عكس ما كان الرئيس الأميركي يسعى إليه، ومن غير الواضح كيف كان سيسير لو لم تدفعه المانيا فجأة إلى أحضان الحلفاء.

(٢)

فقد بيثمان كلياً السيطرة على حكومته في مطلع عام ١٩١٧. فقد كان رئيس هيئة الأركان العامة الجديد، بول فون هندنبورغ، وشبيهه النابغة العسكري اريش لوديندورف، يعتقدان ان كسب الحرب بسرعة أمر ممكن ولا ضرورة لحل وسط. وكان القادة العسكريون هم الذين يملون سياسة المانيا، وأكد هؤلاء القادة لقيصر المانيا ان حرب غواصات غير مقيدة بقيود تستطيع ان ترغم البريطانيين على الاستسلام في غضون ستة شهور، وان التدخل الاميركي في الحرب، إذا حدث، سيأتي بعد فوات الأوان.

إن حملة الغواصات الالمانية، التي زادتها تفاقماً برقية تزيمرمان الشهيرة[*]، قد دفعت الولايات المتحدة إلى إعلان الحرب، بالرغم من ان عدداً كبيراً من الأميركيين قاوموا منطق الأحداث وظلوا متمسكين بمعارضتهم للتدخل في الحرب. وقد واجه الرئيس الأميركي الذي انجرف إلى معسكر الحلفاء بالرغم من إرادته، التحدي المتمثل في توحيد البلاد وراءه.

كانت مشكلة الرئيس ويلسون السياسية ـ والتي كانت على وشك ان تلعب دوراً في تقرير شكل أهدافه في الشرق الأوسط ومناطق أخرى ـ هي انه كان زعيم حزب الأقلية. فقد فاز بالرئاسة في عام ١٩١٢ لأن حزب الأغلبية، أي الحزب الجمهوري، كان قد انقسم إلى شقين، وصوّت البعض إلى جانب نظاميّي هوارد تافت، وصوّت آخرون إلى جانب تقدميي تيودور روزفلت. وفي عام ١٩١٦ أعيد انتخابه بفضل تأييد التقدميين في الولايات الوسطى وولايات أقصى الغرب التي هي في العادة ولايات جمهورية. ولكي يقنع البلاد بتأييد مرشحيه وبرنامجه في الانتخابات المقبلة، كان بحاجة لأن يحتفظ بالجماعات المقترعة نفسها التي سبق ان حققت له الفوز في عام ١٩١٦: أي الكاثوليك الايرلنديين سكان المدن الكبرى الذين كانوا معادين لبريطانيا، والأميركيين الألمان

---

(٥) **مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب**، المجلد ٣: ١٩١٦ ـ ١٩١٧ (بوسطن: ليتل وبراون، ١٩٣٤)، ص ٦٤.

(*) أرسل وزير خارجية ألمانيا، أرثور تزيمرمان برقية سرية الى وزيره المفوض في المكسيك طالباً اليه أن يسعى من أجل تحالف مع المكسيك ضد الولايات المتحدة، ومقابل ذلك تحصل المكسيك على ولايات تكساس، ونيومكسيكو وأريزونا. وقد اعترضت الحكومة البريطانية برقية تزيمرمان فأرسلت نسخة عنها الى الرئيس ويلسون، فنشرها الرئيس الأميركي.

سكان الولايات الغربية الوسطى وأكثريتهم من الجمهوريين (وعدد كبير منهم ولدوا في المانيا) والذين كانوا مؤيدين لألمانيا. فكيف إذن يستطيع إدخال الولايات المتحدة في معسكر الحلفاء من دون تنفير هذه الجماعات؟

غير ان الغواصات الالمانية لم تترك أمامه خياراً آخر: ففي ١٧ آذار (مارس) أغرقت الغواصات الالمانية ثلاث سفن تجارية أميركية. وقد اجتمع الرئيس في العشرين من آذار (مارس) مع مجلس وزرائه طالباً المشورة. جلس مصغياً إلى وجهات نظر أعضاء مجلس وزرائه وكان قليل الكلام، غير انه أبدى ملاحظة بشأن «الحالة المحزنة الجلية للشرق الأوسط»[٦] باعتبارها مشكلة يجب تذليلها. ولكنه لم يقل لمجلس الوزراء هل استقر رأيه على ما يجب عمله.

وفي ٢٤ آذار (مارس) كتب جوزيف باتريك تيومو، سكرتير الرئيس الخاص منذ مدة طويلة، إلى رئيسه لإبلاغه ان الرأي العام الأميركي، وفقاً لما تكشف عنه المقالات الرئيسة للصحف في سائر أنحاء البلاد، هو انه إذا ما دخلت الولايات المتحدة الحرب ضد المانيا «فيجب ان يكون دخولها بسبب مسألة مباشرة بيننا وبينهم»[٧]. وقال ان اميركا يجب ألاّ تقيد نفسها بأهداف الحلفاء في الحرب، بغض النظر عن قيمة هذه الأهداف، ويجب ألاّ يطلب من الأميركيين ان يموتوا من أجل قضايا شعوب أخرى.

وعندما توجه ويلسون إلى الكونغرس مساء ٢ نيسان (ابريل) ليطلب اعلان الحرب على الامبراطورية الالمانية، كان جلياً انه يفكّر بهذا المنحى، إذ انه خصص جزءاً كبيراً من خطابه أمام الكونغرس للحديث عن أهداف الولايات المتحدة الخاصة. وعندما شرح السبب الذي يشعر انه اضطره للمطالبة بإعلان الحرب، حصر تركيز حديثه عن الخلاف مع المانيا في الأسباب التي كان من الصعب تخطئته فيها: لقد أغرق الألمان ثلاث سفن تجارية أميركية وهم عازمون على إغراق المزيد. لقد ارتكبت أعمال حرب ضد الولايات المتحدة وليس أمامه خيار مشرّف سوى ان يرد بالمثل. ولكي يؤكد الرئيس الأميركي ان النزاع كان يتعلق بإغراق السفن الأميركية، أرجأ النظر في موضوع العلاقات مع امبراطورية آل هابسبورغ، حليفة المانيا، فقال: بما ان امبراطورية النمسا ـ المجر لم تعلن الحرب على الولايات المتحدة، فإن الولايات المتحدة، في الوقت الراهن على أقل تقدير، لن تعلن الحرب عليها. (الذي حدث هو ان الولايات المتحدة لم تعلن الحرب على امبراطورية آل هابسبورغ حتى نهاية عام ١٩١٧). وزيادة في التأكيد انه عازم على دخول الحرب لأسباب سياسية من اختياره، لم يأت الرئيس الأميركي على ذكر الامبراطورية العثمانية إطلاقاً، ولا على ذكر بلغاريا التي كانت قد انضمت حديثاً إلى دول أوروبا الوسطى. وفي الحقيقة لم تعلن الولايات المتحدة الحرب على هذه الدول ولا دخلت الحرب ضدها، بالرغم

(٦) **أوراق دودرو ولسون**، أعدها للطباعة ارثور س. لينك وآخرون، المجلد ٤١، ٢٤ كانون الثاني ـ ٦ نيسان ١٩١٧. (برنستون: مطبعة جامعة، برنستون، ١٩٨٣)، ص ٤٣٨.

(٧) المرجع نفسه، ص ٤٦٢.

من ان الباب العالي ـ تحت ضغط المانيا ـ قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.

ولكنه حاد عن الخصومة المحدّدة المتعلّقة بالسفن التجارية لكي يتحدّى الحكومة الالمانية ـ وحكومات الحلفاء أيضاً ـ لأسباب أعمّ. لقد قال أمام الكونغرس إن حكومة القيصر الالماني تشن «حرباً على جميع الأمم» وبالتالي «فالتحدي هو للبشرية جمعاء»[٨]. وقال إن الولايات المتحدة سوف تقاتل «من أجل السلام الدائم في العالم، ومن أجل تحرير شعوب العالم، ومن ضمنها شعوب المانيا»، ثم أكد في عبارة أصبحت مشهورة «ان العالم يجب ان يكون آمناً من أجل الديمقراطية»[٩]. وإذ ميّز الرئيس ويلسون بصورة ضمنية بين السياسة الأميركية وسياسة الدول الحليفة، أعلن «اننا يجب ألّا تكون لنا غايات أنانية. فنحن لا نسعى وراء تعويضات لأنفسنا، ولا وراء تعويض مادي عن التضحيات التي سنقدمها بملء حريتنا»[١٠].

هذه النقطة طرحت في ما بعد بصورة صحيحة عندما عزفت الولايات المتحدة ـ التي حافظت على مسافة بينها وبين الأوروبيين وطموحاتهم السياسية المشبوهة ـ عن ان تصبح إحدى الدول الحليفة، واختارت بأن توصف بأنها شريكة لا حليفة. كان هذا قراراً غير عادي: ان تقاتل الولايات المتحدة إلى جانب بريطانيا وفرنسا وروسيا وترفض ان تكون حليفتها، وان تقاتل ضد المانيا وترفض ان تقاتل حلفاء المانيا. كان هذا القرار دليلاً على خلاف رئيس بيد الدول الأوروبية المحاربة وأميركا ويلسون بشأن الغاية من الحرب وشكل السلام. إن تدخّل الولايات المتحدة في الحرب سوف يلقي بظل طويل على المكاسب التي وعدت الدول الحليفة بأن تكافىء بها بعضها بعضاً في نهاية الحرب، ولا سيما في الشرق الأوسط.

(٣)

كان الرئيس ويلسون قلقاً من جراء الحملات التي شنها على سياسته الحربية الزعماء التقدميون والاشتراكيون في الولايات الغربية الوسطى، لأن هؤلاء كانوا يمثلون كتلاً انتخابية لا يمكن تجاهلها. وقد نددوا بسياسته ووصفوها بأنها تساعد الامبريالية، وادعوا ان خوض الحرب انما هو خدمة لمصالح مالية كبرى. وصوروا الحرب بأنها صراع جشع على الغنائم.

وقد ركّزوا حملتهم على النقطة التي شعر الرئيس ويلسون انها مكمن ضعفه، إذ انه كان يعتقد صواباً ان الحكومات الحليفة قد دخلت في اتفاقيات سرية في ما بينها لتضخيم امبراطورياتها، وخشي إذا كشف النقاب عن هذه الاتفاقيات ان تثبت التهمة الموجهة إليه بأنه أدخل الولايات المتحدة في حرب هي أساساً لخدمة مصالح الامبريالية. فاتفاقية سايكس ـ بيكو السرية، على

(٨) المرجع نفسه، ص ٥٢٠.

(٩) المرجع نفسه، ص ٥٢٥.

(١٠) المرجع نفسه.

سبيـل المثال، نصت على اقتسام بريطانيا وفرنسا الشرق الأوسط العربي. ونصت اتفاقيات أخــرى على ضم كل من روسيا وايطاليا أجزاء من تركيا الحالية. لقد استوضح ويلسون عن تفاصيل المعاهدات السرية ـ مع ان ادوارد ماندل هاوس، موضع ثقته سياسياً، شعر انه من الأفضل عدم الخوض في هذه الأمور قبل كسب الحرب. ورداً على استيضاح الرئيس الأميركي أرسل وزير الخارجية البريطاني، آرثر بلفور، نسخاً من الاتفاقيات السرية إلى واشنطن في ١٨ أيار (مايو) ١٩١٧. لقد ابتأس ادوارد هاوس (الذي كان يستعمل لقبه الفخري في تكساس، لقب كولونيل) عندما اطّلع على مضمون الاتفاقيات. وقال هاوس عن خطة اقتسام الشرق الأوسط كلاماً فيه شيء من التنبؤ، إذ قال «هذه خطة كلها سوء، وهذا ما قلته لبلفور. إنهم يجعلون من الشرق الأوسط مكاناً يستولد حرباً في المستقبل»[١١].

ولم يوافق الحلفاء على نبذ المطالب التي راهنوا عليها لأنفسهم في الاتفاقيات السرية. ولم يكن باستطاعة الرئيس الأميركي ان يستخدم اسلوب الإكراه لحملهم على نبذها: فما كان بوسعه وهو يحارب إلى جانبهم ان يلحق بهم الأذى دون ان يلحقه بالولايات المتحدة. غير انه كان يعرف ان أنباء هذه الاتفاقيات إذا تسربت ستلحق الأذى بهم جميعاً. ولأنه معارض، على أساس مبدئي، للمعــاهدات السرية، وجد نفسه مدفوعاً إلى اتخاذ موقف فيه تناقض هو موقف محاولة إبقاء اتفاقيات الشرق الأوسط سرية، ولكنه لم يستطع ان يفعل ذلك. فعندما استولى البلشفيك على السلطة في بيتروغراد نشروا نسخ الاتفاقيات السرية التي اكتشفوا وجودها في محفوظات الوثائق الروسية. ولما كان ويلسون يخشى تأثير هذه الاتفاقيات على الرأي العام الأميركي، فقد حاول ـ ولكنه فشل ـ ان يمنع نشر المعاهدات في الولايات المتحدة.

لقد لجأ الرئيس ويلسون إلى اقتراح عرضه مؤيده الصحفي الشاب اللامع وولتر ليبمان، وكان آنذاك رئيس تحرير صحيفة (نيو ريبابليك)، فعمد إلى أسلوب الهجوم عن طريق اعادة تعريف الأهداف التي تخاض الحرب من أجلها، بطريقة رأى انها ستوفر النقاء لقضية الحلفاء، وبأمل رفــع معنويات الجموع التي تقف في جانبه، وتوجيه نداء جديد إلى الشعب الالماني من فوق رؤوس قادته[١٢].

حدد ويلسون الأهداف الجديدة للحرب بأساليب عديدة وفي عدد من المناسبات، أهمها كانت النقاط الأربع عشرة التي طرحها في جلسة مشتركة للكونغرس في ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨. بعض هذه النقاط كان ذا طبيعة عامة: الكف عن توقيع اتفاقيات سرية بين البلدان، الدبلوماسية والتفاوض يجب ان يجريا دائماً على مرأى من الناس، حرية البحار، حرية التجارة، ووضع نهاية للتعــرفات الجمركية وغيرها من العوائق الاقتصادية، نزع السلاح العام، وانشاء جمعية أمم لضمان الاستقلال ووحدة الأراضي لجميع الأمم. ولكن نقاطاً أخرى عالجت مسائل محددة، ومن

(١١) سيمور، **أوراق الكولونيل هاوس**، المجلد ٣ ص ٤٥.

(١٢) رونالد ستيل، **وولتر ليبمان والقرن الأميركي** (بوسطن وتورونتو: ليتل براون وشركاه، ١٩٨٠)، ص ١٣٣.

هذه النقاط النقطة الثانية عشرة التي بيّنت أهداف الولايات المتحدة في ما يخص الامبراطورية العثمانيـة، بالرغم من ان الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب معها: «النقطة»[١٢] ـ الأجزاء التركية من الامبراطورية العثمانية الحالية يجب تأمين سيادتها المضمونة، أما القوميات الأخرى التي هي الآن تحت الحكم التـركي فيجب ان نضمن لها أمن الحياة الذي لا شك فيه وفرصة لا تشـوبها شائبة اطلاقاً لتطوير حكمها الذاتي». كان ويلسون قد اقترح في مسودة سابقة ان تمحى تركيا من على الخريطة[١٣]. كان اهتمامه الرئيس في الشرق الأوسط منصبّاً على الارساليات التبشيرية، ويبدو انه، على غرار لويد جورج، ظل يتذكر مجازر المسيحيين التي ارتكبها الأتراك. غير ان الصيغـة النهائية، التي أعد مسودتها مستشاروه، كانت منسجمة مع ادعاء الرئيس الأميركي ان الولايات المتحدة تحارب حكومات أعدائها لا شعوبهم.

لقد عبّرت النقطة الثانية عشرة عن وجهة النظر التي أخذ بها ويلسون وهاوس، والقائلة إنه يجب عدم تقاسم الشرق الأوسط بين الدول المتحاربة، وان الشعوب الخاضعة حتى ذلك الحين لحكم الأتراك يجب ان تتمتع بالحكم الذاتي[١٤]. بيد ان ويلسون وهاوس كانا قبل سنة واحدة فقط قد اتفقا على انه ليس من الفطنة ان يتحدث الرئيس الأميركي علناً عن خططه لتغيير النظام العثماني لئلا يعرض كلامه الكليات التابعة للارساليات الاميركية في بيروت وخارج القسطنطينية للخطر[١٥].

بعد شهر، أي في ١١ شباط (فبراير) ١٩١٨، تحدث ويلسون إلى الكونغرس فحدد بطريقة عامة المبادىء الأربعة التي ينبغي ان ترتكز إليها تسوية الصلح. وقد كان المبدأ الثاني والمبدأ الثالث كما يلي:

٢ ـ لا يجوز مقايضة الشعوب والمناطق لنقلها من سيادة إلى سيادة أخرى وكأنها متاع أو بيادق في لعبة توازن قوى، حتى اللعبة الكبرى التي أصبحت الآن منبوذة إلى الأبد، ولكن، تشملها هذه الحرب.

٣ ـ كل تسوية اقليمية يجب ان تتم لمصلحة ومنفعة السكان ذوي العلاقة، وألّا تكون جزءاً من أي توافق أو حل وسط للمطالب بين الدول المتنافسة...

وقد ألقى ويلسون خطاباً بتاريخ ٤ تموز (يوليو) ١٩١٨ حدد فيه الأهداف الأربعة التي تحارب الولايات المتحدة وشركاؤها من أجل تحقيقها والتي من ضمنها:

«تسـويـة كل مســألة، سواء أكانت مسألة أرض أم سيادة، أم ترتيب اقتصادي، أم علاقة سيـاسية، على أساس القبول الحر لتلك التسوية من قبل الشعب المعني مباشرة، وليس على أساس المصلحة المادية أو الفائدة المادية لأية دولة أخرى أو شعب آخر قد يكون راغباً في تسوية مختلفة من أجل نفوذه الخارجي أو سيطرته الخارجية».

---

(١٣) سيمور، **أوراق الكولونيل هاوس**، المجلد ٣، ص ٣٢٣.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) سيمور، **أوراق الكولونيل هاوس**، المجلد ٢، ص ٤١٥.

استقبلت مقترحات السلام التي طرحها ويلسون بحماسة شديدة، ولكن، مما له دلالته، ليس من قبل الحكومات الحليفة. وقد كتب مؤلف سيرة حياة وولتر ليبمان في هذا الشأن:

«في أول الأمر كان هذا محيراً لليبمان، إذ انه افترض ان ويلسون نسّق خطته مع الحلفاء قبل ان يعلنها. ولكن ويلسون لم يكن قد فعل ذلك، ولسبب وجيه: فقد كان يعرف انهم سيرفضونها، فلما أخفق في جهوده لإقناع الحلفاء بنبذ المعاهدات السرية حاول اقناع شعوب أوروبا بالضغط على حكوماتها. ولكن هذا التكتيك فشل، ونتيجة لذلك صارت النقاط الأربع عشرة مجرد اعلان أميركي وحيد الجانب وليس بياناً بسياسة الحلفاء[١٦].

والحقيقة ان هذه النقاط كانت تمثل تحدياً للحكومات الحليفة ولحكومات الأعداء.

(٤)

النقـطة الثانية عشرة لم تكن وحيدة الجانب فحسب، بل كانت تنطوي على مفارقة: فالرئيس الأميركي كان يدعو إلى تفتيت الامبراطورية العثمانية، التي لم تكن الولايات المتحدة في حالة حرب معها. وثمة مفارقة أخرى بدت في إعلان الولايات المتحدة الحرب على المانيا ثم على النمسا ـ هنغاريا من دون ان تعلن الحرب على حلفائهما أيضاً.

وقد بدت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي محبذة لاصدار اعلانات الحرب الأخـرى. فرئيس اللجنة طلب إلى وزير الخارجية لانسينغ تفسيراً أوفى للأسباب التي منعت الادارة الأميركية من ان تفعل ذلك. وقد ذكر وزير الخارجية عدداً من الأسباب في مذكرة جوابية مستفيضة[١٧]. آنذاك لم تكن للولايات المتحدة تجارة هامة أو مصالح اقتصادية أو تجارية تخشى عليهـا في الشرق الأوسـط ما عدا كليتين مدعومتين من ارساليات بروتستانتية ـ كلية روبرت والكلية البروتستانتية السورية ـ اللتين كان معنياً بهما عناية شديدة صديق ويلسون وسنده المالي الأكبر، كليفلاند دودج. ولكن لانسينغ قال ان الحفاظ على هاتين المؤسستين هو في حد ذاته على جانب من الأهمية يسوّغ سياسة الادارة الأميركية. وأشار إلى ان قيمة هاتين المؤسستين تقدر بملايين الدولارات، وفي حالة الحرب قد تتعرضان للمصادرة. كما قال محذراً ان المسيحيين واليهود في الامبراطورية العثمانية قد يصبحون في حالة الحرب ضحايا مجازر جديدة. وقال لانسينغ انه لا يرى فائدة تُجنى من إعلان الحرب، وأشار إلى ان تركيا لم تهاجم الولايات المتحدة.

بالرغم من الأسباب العديدة التي أوردها لانسينغ في تفسيره قرار الإدارة، بقي الكونغرس غير مقتنـع بهـا، وطُرح على مجلس الشيوخ في عام ١٩١٨ مشروع قرار يدعو إلى اعلانات حرب

---

(١٦) ستيل، **ليبمان**، ص ١٣٦.

(١٧) لورانس ايفانز، **سياسة الولايات المتحدة وتقسيم تركيا ١٩١٤ ـ ١٩٢٤** (بالتيمور: مطبعة جامعة جون هوبكنز، ١٩٦٥)، ص ٣٩.

اضافية. وقد قال لانسينغ في شهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ، ان القرار يعود أساساً إلى الكونغرس. وبناء على طلب اللجنة وافق على ان يستكشف رأي الحلفاء ليعرف منهم هل يعتقدون ان اعلانات الحرب الاضافية ستساعد أم تعرقل المجهود الحربي.

وفي شهر أيار (مايو)، أبلغ لانسينغ الرئيس الأميركي ان الحلفاء يرون ان اصدار الولايات المتحدة اعلانات الحرب الاضافية سوف يساعدهم. بيد ان لانسينغ نبّه الرئيس إلى أكثر من مليون دولار شهرياً ترسل إلى الإرساليات الأميركية في الامبراطورية العثمانية لتوفير الطعام والعناية للسوريين والأرمن، وستنقطع عنهم هذه المساعدة في حالة اعلان الحرب[18].

عندئذٍ ثبّت الرئيس قراره بعدم اعلان الحرب. وقد أبلغت لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ بذلك فقبلت القرار على مضض. وهكذا ظلت الولايات المتحدة في حالة سلام مع الامبراطورية العثمانية بينما واصل الرئيس الأميركي صياغة خططه لتجزئتها.

(٥)

بدأ الكولونيل هاوس في أوائل أيلول (سبتمبر) ١٩١٧، بناء على طلب الرئيس، وبمعزل عن وزارة الخارجية، في تجميع فئة من المساعدين لمساعدته في صياغة خطط أميركا لعالم ما بعد الحرب. كان الرأي ان تكون مجموعة مستقلة بعيدة عن الأضواء، وأن يطلق عليها الاسم الرمزي «التحقيق». وقد عقدت اجتماعاتها الأولى في المكتبة العمومية في نيويورك. وبناء على اقتراح ويلسون، جاء هاوس بالمشاركين في هذه المجموعة من الأوساط الجامعية بصورة رئيسة بدءاً بأسماء رشحها رئيس جامعة هارفارد ورئيس تحرير «نيو ريبابليك». ووقع اختيار الرئيس ويلسون شخصياً على وولتر ليبمان. وبلغ عدد أعضاء المجموعة التي جمعها هاوس، في ذروته، مئة وستة وعشرين عضواً. والغالبية العظمى منهم كانوا من خريجي واحدة أو أخرى من الجامعات الأربع التي هي صفوة الجامعات الأميركية ـ شيكاغو، وكولومبيا، وهارفارد، وييل ـ وكثيرون منهم جيء بهم من كليات هذه الجامعات أو من معاهد مماثلة[19].

ومع ذلك فإن «التحقيق» ـ بمعزل عن خرائطها التي أعدتها باتقان المحترفين[20] ـ كانت تدير أعمالها بأسلوب الهواة. فمجموعة الشرق الأوسط، المؤلفة من عشرة أساتذة من جامعة برنستون، لم تتضمن أي اختصاصي بالشرق الأوسط المعاصر. وكان رئيسها باحثاً مختصاً بالحروب الصليبية، أما ابنه، وهو أيضاً عضو في المجموعة، فكان مختصاً بدراسات أميركا اللاتينية. وبين أعضائها الآخرين خبير في شؤون الهنود الأميركيين، ومهندس، واستاذان

---

(١٨) المرجع نفسه، الصفحات ٤٠ ـ ٤٢.

(١٩) لورنس ا. جيلفاند، **التحقيق: الاستعداد الاميركي للسلام ١٩١٧ ـ ١٩١٩** (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل، ١٩٦٣)، ص ٤٧.

(٢٠) المرجع نفسه، ص ٢٧٣.

مختصان باللغات والآداب الفارسية القديمة[٢١].

أما اختيار المكتبة العمومية في نيويورك أول مقر لها، فكان يرمز إلى طريقة العمل التي تبنتها مجموعة «التحقيق». فبعد ان أثارت كل المسائل السياسية التي تقسم الجنس البشري، شرعت «التحقيق» في بحث هذه المسائل. وكثيرون من الباحثين لم يفعلوا أكثر من تلخيص المعلومات التي عثروا عليها في إحدى الموسوعات. وكثيرون منهم اتهموا في نبش مسائل في الأدب والهندسة المعمارية مما لا يخطر في البال ان تكون له أية علاقة بشروط معاهدة الصلح المقبلة. وقلة من التقارير كانت لها أية علاقة بمسألة المصالح الوطنية الأميركية[٢٢].

وكما هو معهود في هذه المجموعة، لم ترد أية إشارة حتى في تقرير القسم الاقتصادي لمجموعة الشرق الأوسط، إلى امكانية العثور على كميات كبيرة من النفط في ذلك الجزء من العالم. مع ذلك، ففي عام ١٩١٨، إذ احتدمت حرب من حروب القرن العشرين ظهرت فيها الطائرات والدبابات لأول مرة، اكتشفت الولايات المتحدة (مثلما اكتشفت فرنسا في العام عينه، ومثلما اكتشف ونستون تشرشل في بريطانيا قبل نشوب الحرب) ان الكميات الهائلة من النفط التي تتطلبها الحرب الحديثة قد جعلت موارد النفط المحتملة المشتبه بوجودها في الشرق الأوسط، ذات أهمية بالغة. واغفال تقارير «التحقيق» المتعلقة بالشرق الأوسط موضوع النفط كان دليلاً على جهل رجال الرئيس بالأمور الدنيوية، وانذاراً بالسوء لمؤتمر الصلح المقبل[٢٣].

(٦)

ومع ان برنامج السلام الذي وضعه الرئيس ويلسون كان في بعض جوانبه خيالياً في مثاليته، فإن الاستجابة غير العادية التي لقيها في سائر أنحاء العالم دلّت على انه يعبر عن توق واسع النطاق إلى فهم سبب خوض الحرب. لقد قال بلفور، وزير الخارجية البريطاني ان الحرب «ربما كانت الحدث الأكبر في التاريخ» ولكن ذهنه لا يمضي إلى أبعد من ذلك: «إن الأجيال المقبلة قد ترى ان بالامكان رؤية الشيء كما هو موجود فعلاً»، أما هو والجيل الذي ينتمي إليه فلا يقدر على ذلك[٢٤]. كانت الحرب، مع حلول عام ١٩١٧، قد أصبحت أكبر كثيراً من الأحداث المسببة لها، إلى حد ان مسبباتها بدت، إلى حد يقرب من العبثية، عديمة الأهمية بالمقارنة مع الحرب نفسها.

في اليوم التالي لالقاء وودرو ويلسون خطابه أمام الكونغرس الذي طلب فيه اعلان الحرب، كتب إليه وولتر ليبمان رسالة (بصيغة ظهرت في جريدة «نيو ريبابليك» في وقت لاحق من الاسبوع) قال

(٢١) المرجع نفسه، الصفحات ٦٠ ـ ٦٢.

(٢٢) المرجع نفسه، الصفحات ٢٤٠ ـ ٢٥٠.

(٢٣) المرجع نفسه، الصفحات ٢٥٠ ـ ٢٥٢.

(٢٤) سيمور، **أوراق الكولونيل هاوس**، المجلد ٣، ص ٣٩.

له فيهـا: «لا أحد سوى رجل الدولة الذي سيدعى عظيماً كان باستطاعته ان يجعل التدخل الأميركي يعني الكثير جداً بالنسبة للقوى الكريمة في العالم، وان يرفع الرعب المحتم الناجم عن الحرب إلى مرتبة عمل مفعم بالمعنى إلى هذا الحد»[٢٥]. لقد وجد ليبمان، كما كان شأنه دائماً، الكلمة المعبرة: إن الرئيس، بتبنيه الأهداف التي تبناها، قد أعطي الحرب معنىً.

بعـد سنوات، وفي حديث غير رسمي على متن الباخرة في الطريق إلى مؤتمرات الصلح في عام ١٩١٩، قال ويلسون لمرافقيه «لديَّ القناعة بأن هذا السلام إذا لم يرتكز إلى أسمى مبادىء العـدالة، ستكنسه شعوب العالم في أقل من جيل واحد. فإذا كان سلاماً من نوع آخر فإني سأهرب واختبىء... لأن ما سيعقبه لن يكون مجرد نزاع بل كارثة»[٢٦].

مع ذلك ما صاغ ويلسون ولا أولئك الذين اشتركوا في مجموعة «التحقيق» التي أوجدها، برنامجاً محدداً من شأنه ان يترجم الوعود إلى واقع: فقد كان برنامج الرئيس غامضاً مبهماً وكان لا بد من ان يثـير آلاف التـوقعـات ـ الأمـر الذي أكّد من الناحية العملية ان أية اتفاقية ينجزها السياسيون ستكون مخيبة للآمال.

(٢٥) ولسون، **أوراق**، المجلد ٤١، الصفحتان ٥٣٧ ـ ٥٣٨.
(٢٦) جيلفاند، **التحقيق**، ص ١٧٣.

صهيونية لويد جورج

(١)

بين البشر لا يمكن ان نجد رجلين أقل تشابهاً مما كان الحال بين الرئيس الأميركي المتقشف ورئيس الوزراء البريطاني الساحر والمنحل أخلاقياً.

بيد انهما كرجلين سياسيين، كانا متشابهين: فكلاهما كان محباً للعزلة ووصل إلى السلطة عبر ضربة حظ ناشئة عن انشقاق حزبي، وكلاهما طبق سياسة خارجية ذات طابع شخصي متجاوزاً وزارة الخارجية في بلده. وكان كل من ويلسون ولويد جورج كارهاً ان تنجر بلاده إلى الحرب، ثم بعد ان اختار كل منهما الحرب رأى من العسير ان يحافظ على دعم مؤيديه من دعاة السلم المعادين للحرب. وكلاهما كان من اليسار السياسي. ولكن أوجه الشبه بينهما تقف عند هذا الحد، إذ بينما كان ويلسون يسير في اتجاه متزايد التقدمية والمثالية، كان لويد جورج يفعل العكس تماماً.

لو كان ماضي لويد جورج السياسي هو الدليل إلى ادائه في المستقبل، لكان ممكناً ان نتوقع منه ان يشاطر الولايات المتحدة بغضها للأهداف الامبريالية في الشرق الأوسط. فعندما كان راديكالياً في شبابه كان معارضاً للامبريالية البريطانية، ولكان مما يتفق مع سجيته ان ينقض، بعدما أصبح رئيساً للوزراء، اتفاق وزارة اسكويث مع الحلفاء على توسيع امبراطوريات الدول الحليفة ـ ولكنه لم يفعل ذلك.

لقد شعر لويد جورج بالحاجة عينها التي شعر بها ويلسون لإعادة صياغة أهداف الحرب، ولكنه توصل إلى استنتاجات مختلفة. ذلك ان ويلسون أعلن ان جسامة الحرب تستدعي سلاماً بغير ضم للأراضي. أما لويد جورج فقد تبنى وجهة النظر الأخرى: ان جسامة الحرب تتطلب تعويضات وضماً للأراضي على نطاق ضخم.

وعد ويلسون ولويد جورج كلاهما شعوب الامبراطورية العثمانية بحياة أفضل، ولكن في حين أعطى ويلسون الأمل في الحكم الذاتي ارتأى لويد جورج، وهو يستخدم الكلام البلاغي عن

التحرر القومي، إعطاء الشرق الأوسط حكومة أفضل مما يستطيع الشرق الأوسط ان يعطي نفسه. في هذا المجال توافقت أهداف رئيس الوزراء البريطاني مع أهداف معاوني كيتشنر الذين كانوا يمارسون الإشراف اليومي على سياسة القاهرة البريطانية في الشرق الأوسط. وبذلك تحسنت فرص تنفيذ سياسته فعلياً.

عندما تولى رئيس الوزراء البريطاني الجديد منصبه في نهاية عام ١٩١٦ وبداية عام ١٩١٧ حمل معه الحماسة الراديكالية القديمة العهد، لأهداف انبثقت من الحرب، مثل تدمير الامبراطورية العثمانية الرجعية ـ هذه الأهداف التي هي صدى أيام عزليبرالية القرن التاسع عشر. كان أحد الإجراءات الأولى التي اتخذها لويد جورج عندما أصبح رئيساً للوزراء ان يأمر جيوشه في مصر بالانتقال إلى مرحلة الهجوم. وكان أحد اجراءاته الأخرى انه أمر جون بوتشان، وكان قد عيّنه بناء على اقتراح ميلنر مديراً للاعلام، بأن يشرع في حملة دعائية تصور تدمير الأمبراطورية العثمانية هدفاً رئيساً من أهداف الحرب. وقد استحوذت هذه الحملة على خيال الناس. وبرهن شعار «الأتراك يجب ان يذهبوا!» على انه شعار فعال[1]. إن هذه الحملة الدعائية، شأنها شأن نقاط ويلسون ومبادئه، أثبتت، على الأقل في المدى القصير، انها سياسة جيدة.

إن برنامج لويد جورج القاضي بإرسال قوات للقتال في الشرق قد وضعه في نزاع مباشر مع جنرالاته، إذ انهم استمروا في المطالبة بأن يكون لهم الإشراف الأعلى على القرارات العسكرية، وقد أيّدهم في ذلك الملك جورج. وكانت استراتيجيتهم، كعهدها دائماً، تقضي بتركيز كل الموارد على الجبهة الغربية، وقد عبّروا عن تذمرهم لأن رئيس الوزراء الجديد يتحدى رأيهم المهني. وتناول الموضوع أصدقاؤهم الصحفيون في شارع الصحافة ـ شارع فليت. وفي أوائل شهر كانون الثاني (يناير) هدد قطب الصحافة، اللورد نورثكليف، في محادثة حامية الوطيس، بأن «يحطم» لويد جورج ما لم يتراجع عن استراتيجيته الشرقية[2]. وعزا نورثكليف إلى نفسه الفضل في اسقاط اسكويث في كانون الأول (ديسمبر)، وبدا واثقاً من قدرته على اسقاط لويد جورج في كانون الثاني (يناير) إذا شاء ان يسقطه.

في الوقت نفسه تقريباً طلبت وزارة الحربية إلى شخص مقرب من لويد جورج ان ينذره بأن الجنرالات عازمون على مقاتلته وانه «قد لا يخرج بخير من هذا القتال»[3]. وفي المانيا كانت هيئة الأركان العامة تتجه نحو عزل المستشار المدني. ولذلك فإن رئيس الوزراء البريطاني، بعدما رأى ان الملك وزعماء حزبه الليبرالي والصحافة والجنرالات يقفون جميعاً ضده، لم يعد واثقاً من ان هيئة الأركان العامة لقوات الامبراطورية البريطانية لن تقدم على محاولة مماثلة. كان زمناً من أزمنة السياسة العالمية بدا فيه أي شيء ممكناً حتى ما كان في السابق أمراً لا يخطر في الخيال.

---

(١) روجر ادلسون، مارك سايكس: لوحة هاو (لندن: جوناثان كيب، ١٩٧٥)، ص ٢٢٢.

(٢) اللورد بيفربروك، الرجال والسلطة ١٩١٧ ـ ١٩١٨ (لندن: هتشنسون، ١٩٥٦)، ص ٤٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٨.

مع ذلك بقي متمسكاً قدر ما استطاع باستراتيجيته الشرقية، مزدرياً مستشاريه العسكريين. فقد كتب بعد ذلك بزمن طويل «أن لا شيء ولا أحد كان يستطيع انقاذ الأتراك من الانهيار التام في عام ١٩١٥ وعام ١٩١٦ سوى هيئة أركاننا العامة»[٤]. وكان لويد جورج يرى ان تحقيق نصر على الامبراطورية العثمانية قبل نهاية عام ١٩١٦، وبعد دخول بلغاريا الحرب، من شأنه «ان يحدث أثراً حاسماً على مصير الحرب»[٥]. وقد قال إنه كان أمراً سهلاً ان تهزم تركيا في أي وقت وان «مظهر العزيمة الذي بدا به الأتراك أمام الحلفاء كان مظهراً لا يخفي وراءه أي شيء، لأنه كان جزءاً من لعبة وزارة الحربية البريطانية للتظاهر بأن لدى الأتراك قوات رهيبة واحتياطياً وافراً. ولعل وزارة الحربية قد صدّقت ذلك، فإذا كانت قد صدّقت، إما ان تكون معلوماتها ناقصة أو انها خدعت بسهولة»[٦].

كانت حجة لويد جورج التي دافع عنها منذ بداية الحرب، انه يمكن إلحاق الهزيمة بألمانيا بواسطة هجوم عبر البلقان، وان الحاق الهزيمة بتركيا سيفتح البلقان أمام مثل هذا الهجوم. وقد تمكن من دعم موقفه عندما استشهد بعد ذلك بوقت طويل برئيس هيئة الأركان العامة الالمانية، فون هيندنبورغ، إذ نقل عنه قوله: «إذا كانت هناك فرصة لنصر استراتيجي ساطع فهي هنا... فلماذا لم تغتنم انكلترا قط فرصتها؟... ان التاريخ قد يوضح يوماً ما هذه المسألة...»[٧].

لقد أراد لويد جورج ان يقدم هذا الايضاح، ولكن مشكلته كانت افتقاره إلى القوة السياسية التي يحتاجها لمجابهة الجنرالات والتي يحتاجها أيضاً لامتلاك القوات والمعدات بأعداد وكميات كافية للقيام بالمهمة. وقد بقي هو وقادة بريطانيا العسكريون طوال عام ١٩١٧ وخلال جزء كبير من عام ١٩١٨ يخوضون حرب مناورات ومكائد ضد بعضهم بعضاً. كان وضع لويد جورج حرجاً، إذ لم يكن لتأييده في البرلمان أي عمق، ذلك ان تأييده كان يأتي في ذلك الحين من خصوم سابقين، وكان الشك فيه يأتي من أصدقاء سابقين. وكان أخطر سياسي يهاجم الحكومة هو صنيعته السابق ونستون تشرشل. وقد كتب أحد أصدقاء الرجلين قائلاً: «إن لهجته في الحديث عن لويد جورج لهجة حقد ومن الجلي انه بدأ يعتبره خصماً كريهاً»[٨]. كان لدى تشرشل ما يدعوه لأن يحقد، إذ ان لويد جورج استبعده من وزارته. أما رأي لويد جورج في تشرشل فهو «ان هذا الرجل جر تركيا إلى الحرب، وأمثاله هم أخطر من ان يتولوا مناصب رفيعة»[٩].

---

(٤) **مذكرات ديفيد لويد جورج عن الحرب**، المجلد ٤، ١٩١٧ (بوسطن: ليتل وبراون، ١٩٣٤)، ص ٦٨.

(٥) المرجع نفسه، ص ٦٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٤٣٢.

(٧) المرجع نفسه، الصفحتان ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

(٨) مارتن جيلبرت، **ونستون س. تشرشل: المجلد المرافق**، المجلد ٤ الجزء (١): كانون الثاني ١٩١٧ ـ حزيران ١٩١٩ (بوسطن: هوتن ميفلين، ١٩٧٨)، ص ٥٩.